محمد كامل الخطيب

المدن الساحلية



قصص ٥ ——— ٠٠٢١

المدن الساحلية

- محمد كامل الخطيب
- المدن الساحلية
- قصص
- الطبعة الأولى ١٩٧٩
- الطبعة الثانية ٢٠٠٠
- منشـــورات ٢١ ٠٠

- توزيع : الدار الوطنية الحديثة

دمشق ــ هــ: ٤٤١٨١٧٢

٤٤١٨٢٠٢

مطبعة اليازجي

دمشق هاتف : ٢٣١١٢٧٩

محمد كامل الخطيب

المدن الساحلية

رواية - قصص

مطلــع

نصنع عمراً جميلاً، ونمضي

ها قد مرت سنوات عريضة بعد الزمن الذي كنا فيه في العشرين. الآن يعرف أكثرنا، لا أحد يستطيع نسيان أحلام الشباب. نتوهم أننا غادرنا ذاك الزمن، لكننا لم نعبر سوى أنفسنا، فالجثة التي على الرصيف هي أحلامنا التي لم نعشها.

لماذا لا نصنع عمراً جميلاً ونمضي؟!

* * *

ها هو الزمن يسقط كأوراق الشجر وكشعرات الرأس وكزخات المطر، ها هو الزمن ينهمر كالدموع وكالثلج، وها هي الحياة تمضي، فبماذا نبالي ونحن نتفرج على شجرة تسقط أوراقها؟! بماذا نبالي، ونحن نقف تحت المظلة، نتفرج على مطر يبلل غيرنا.؟! آه... الماء من القدم إلى الرأس، من قال أن المظلة تعصم؟!

* * *

قد نكون سحابة عابرة. قد نكون موجة تتلاشى بهدوء على شاطئ رملي. قد لانشعر بالزمن يتسرب من حياتنا، لكن من هو ذاك السابح في الزمن، وفي دمه، إن لم يكن نحن؟!.

ما أجمل الولد الذي لا يتربى. كان /رأيته/ يمسك بنطاله القصير في خصره ويركض. كان يبحث عن كرة وينادي رفيقته: تعالي نلعب.

* * *

هل رأيتم فلاحا مقتلعاً من أرضه يبيع اليانصيب في سوق المدينة؟!

هل رأيتم خادمة صغيرة تنوء تحت صينية كبيرة؟!

هل رأيتم عمالاً مجتمعين في ساحة عامة والبرد قد غوَّر عيونهم؟!

هل رأيتم جنديا جرح في الحرب فحولوه إلى «آذن» يقدم القهوة والشاي للموظفين؟!

هل رأيتم كل هذا؟!

* * *

في تلك الشوارع الصباحية التي كنت أبحث فيها عن روحي، وعن قرنفلة حمراء فلا أرى إلا عمالاً وشحاذين وتلاميذ وأوائل شمس طالعة. في تلك الشوارع مازلت أبحث عن روحي، عن قرنفلتي.

في رماد هذه المجازر، وعلى أشلائنا، تعالوا نزرع عشبا وشمسا وأنهاراً.

يتطلع المرء وراءه بحثاً عن خشبة أو ورقة يحرقها، فيكتشف أنه جاء هذا الشاطئ عريان إلا من بلاده وعصره. دون أن يضع «هذا المرء» راحتيه قدامه وخلفه يمشي. لم الخجل؟! هذا نحن. تعالوا نتعر.

* * *

ما بين الدم والنبيذ، ما بين الوردة والقنبلة، ما بين الزرقة وهذي البلاد التي تعيش فينا، ما بين الناس وقهرهم، ما بين وما بين... نصنع عمراً جميلا... ونمضي.

محمد كامل الخطيب

المدن الساحلية

روايـــــة

١ـ نحو الداخل

عندما اشترى دفتراً هذا المساء، لم يكن في ذهنه الواعي وجه معين لاستعماله، لكنه وبعد أن أغلق الكتاب الذي كان يقرأ فيه ـ وكان ذلك حوالي الثانية عشرة ليلاً ـ فتح الدفتر، وبدأ تلك الليلة يكتب:

*

٥ كانون الأول

تهاجر المدن والأحلام
لكنها في ليالي الشتاء
تستوطن الذاكرة

١٦ كانون الأول

تركض الوعول والأطفال
كذلك السنون والأرانب
تهرب الحياة

*

في الصباح خرج من البيت، ذهب إلى مقهى المنشية، تناول فنجان قهوة، ذهب إلى طلابه.

*

٢٢ كانون الأول

ما معنى الخواطر التي دونتها في هذا الدفتر منذ أيام؟ هل بدأت في كتابة مذكراتي؟ لدي رغبة في ذلك، وسأفعل لكن لماذا يكتب الإنسان مذكراته؟ هل أحسب نفسي عشت ورأيت كثيرا؟ أذكر أنني في شبابي، كتبت دفتري مذكرات، كان ذلك لأن جهان طلبت ذلك... لو أستطيع الآن أن أحصل على الدفترين.

أسأل نفسي مرة أخرى: لماذا أريد كتابة مذكرات؟... لا أعرف.

*

٢٥ كانون الأول ١٩٧٢

سامرا

بابك ما زال منتظرا

خيل المهدي القادم من

بحر الأحزان

*

خرج من المدرسة، مر على المنشية. شرب فنجان قهوة، تغدى في المطعم الذي اعتاد أن يتغدى فيه أحياناً.

*

٢٨ كانون الأول ١٩٧٢

اليوم قيل لي أن المدير ضرب طالبا في الصف الثالث ثانوي، إنني ضد هذا... لماذا لم أفتح الباب وأدخل على المدير وأقول له: مهما كانت الأسباب، من الخطأ أن تضرب شابا.

*

٣٠ كانون الأول ١٩٧٢

اليوم فكرت بالماضي كثيرا. بين فقرات الكتاب الذي كنت أقرأ فيه، كنت أرى شريطاً مصورا للماضي، فكرت كثيرا بجهان والسجن وماضيّ السياسي... كانت صورة جهان متسلطة على مخيلتي. ترى أين صارت الآن؟

*

«بلا تاريخ»

للمرة المائة - ربما - سمعت هذه الليلة السمفونية الخامسة، لكنني هذه الليلة شعرت أن شيئاً ما، غيمة سوداء أو بيضاء - لم أستطع تمييز اللون - تقترب مني وأنا أحاول الهرب منها. انتهت السمفونية وشربت كأساً من الشاي.

*

خرج من المطعم، دخل غرفته، اشتغل حوالي ساعة في تصحيح دفاتر طلابه، ذهب إلى الرصيف البحري المقام حديثاً في البلدة. كان نهاراً ممطراً ومع هذا، سار في طريقه اليومي المعتاد.

*

٤كانون الثاني ١٩٧٣

ليلة رأس السنة شربت مع علي وسليمان وعزيز وجورج، شربنا وكالعادة بدأ الحديث عن السياسة، وانتهى في النساء، أحسست نفسي بينهم وحيداً. في الساعة الثانية ليلاً سرت في شوارع البلدة، كانت جميلة تحت أضواء الكهرباء. مطر وضوء وبحر وشوارع هذه البلدة تجعلني أحس بأنني في حلم طويل... وعندما أويت إلى فراشي

أحسست بالحاجة إلى امرأة... وقبل أن أغفو برز في مخيلتي وجه جهان.

*

٧ كانون الثاني ١٩٧٣

في غرفة المدرسين كانوا اليوم يتحدثون ـ على عادتهم ـ عن ارتفاع الأسعار وأن الوضع لا يحتمل، والراتب لم يعد يكفي، وكنت أتذكر، في يوم مثل هذا اليوم، وكنا في الغرفة نفسها نتحدث الحديث نفسه تقريباً، اعتقلوني، وأبقوني عشرة أشهر في ضيافتهم.

*

من الرصيف البحري، اتجه نحو شارع المشبكة ثم انعطف باتجاه مكتبة السوريتي، دخل، أخذ بعض الصحف والمجلات ـ على عادته ـ بحث عن كتاب جديد، فلم يجد.

*

٩ كانون الثاني

عمري ثمانية وثلاثون عاماً تقريباً، ماذا حققت حتى الآن.

*

١٠ كانون الثاني

ماذا فعلت بحياتك أيها الرجل؟

*

خرج من مكتبة السوريتي، سار نحو المنشية، دخل المقهى كان هناك الأشخاص أنفسهم.

ـ أهلاً حسين.

- مرحبا يا شباب

*

١٢ كانون الثاني

للمرة الثانية أحس بغيمة بيضاء - هذه المرة أنا متأكد أنها بيضاء - تلاحقني، وأنا أهرب منها وهي تلاحقني، تلاحقني طوال فترة سماعي السمفونية الخامسة.

*

١٥ كانون الثاني

راتبي يكفينا، أنا وأخي وأمي، عندي كتب وموسيقى، وكان لي أصدقاء. في مدينتي بحر وشوارع جميلة ومقهى هادئ. ثمة أماكن جميلة باستطاعتي أن أذهب إليها وأصور فيها أيام الجمع المشمسة والعطل، لكني مع هذا أسأل نفسي: لماذا ترتفع الأسعار هكذا؟ الذين لديهم بدل كتبي وموسيقاي أطفال ماذا سيطعمون أولادهم؟ ماذا يفيد كل هذا؟

*

١٨ كانون الثاني

لقد أصبحت بعيدا عن الناس... هل أنا أبتعد أم - هم - الذين أبعدوني؟

*

٢١ كانون الثاني

اليوم ذهبت إلى مكتبة السوريتي، بعد أن جلست قليلا، خرج هو لعمل قصير، وتركني وحيداً، دخلت امرأة إلى المكتبة، أحسست أنني

أرتجف وأنني خائف. بقيت أرتجف حتى دخل السوريتي، باعها دفتر رسائل، بعد أن خرجت أحسست نفسي هادنا.

*

دخل المقهى، كان هناك رفاق اللعب جميعا.

- أهلا حسين.

- مرحبا.

- سنلعب اليوم كونكان.

- أبو وحيد... أعطنا ورق لعب.

- أربعة قهوة.

جلس قبالة سليمان وبدأوا اللعب

٢٥ كانون الثاني

إلى أين أسير؟

٢٧ كانون الثاني

اليوم كنت أحاول أن أبين لطلابي أهمية طه حسين، وكتابه في الأدب الجاهلي، بشكل خاص. قام أحد الطلاب وقال لي: لكنه ملحد يا أستاذ. قبل أن أنام سأسمع «النزوة الإيطالية» هذه الليلة.

٣٠ كانون الثاني

اليوم سمعت أن رئيس البلدية ارتشى بمبلغ كبير من أحد الإقطاعيين السابقين. إذا تحدثت بهذا سيقولون عني موتور... أنت ضد الحكومة... أنت من بقايا العقلية السابقة.

٤ شباط

اليوم لاحظ عليَّ سليمان بأنني أهمل ثيابي وحلاقة بذقني، وأنه يخشى أن يكون هذا بداية الشيخوخة... ضحك الحاضرون. يبدو أنني كبرة.

٩ شباط

أمس شربت نبيذاً في الشاطئ الأزرق. كان رأسي يتوقد... كنت فرحاً... لكنني أطفأت فرحي في الفراش. لو كانت هناك امرأة لفرحي.

١٣ شباط

أريد أن أفعل شيئا... لكن هل عجزت؟

١٥ شباط

هذا الشعر الحديث... إنني أحبه... كيف أستطيع جعل طلابي يحبونه؟

١٨ شباط

أليس هناك عمل أكثر جدوى من التدريس؟!

*

خرج من المقهى، دخل إحدى الخمارات، شرب كأساً من النبيذ، اشترى زجاجة نبيذ. ذهب إلى غرفته وحيداً. حاول أن يكتب شعراً.

*

مشاعري متضاربة بين الحب والكره لهذه المدينة، ولهذا العالم.

٢٣ شباط

يسير على أي شخص أن يقول عني مثقف برجوازي عاجز.

وربما أكون هكذا. لكنني في مأزق، وأحس نفسي سائراً في طريق النهاية.

٢٦ شباط

منذ مدة وأنا أعيد قراءة «الجبرتي». إنني أجد فيه ما يرضيني ويشعرني بالإقناع والراحة.

٢٨ شباط

اليوم أحسست أن ضميري زائدة دودية. تراودني أفكار تذكرني بأفكار وقت الشباب.

٣ آذار

اليوم حدقت في وجوه طلابي، حاولت أن أستطلع مستقبلهم في وجوههم، وجوههم كانت صامتة سوى واحد، فكرت بأن أصيح بهم: اهربوا من هذه المدرسة، لا تضيعوا حياتكم على هذه المقاعد، بيني وبين نفسي سخرت من فكرتي الجنونية هذه، لكنني وكلما فكرت بها وجدتها أقرب للصحة.

٦ آذار

يلح علي في هذه الأيام التفكير بالمستقبل، مستقبل بلدي ومستقبلي الشخصي. أظن أنني انتهيت شخصياً، لكنني وكلما فكرت بمستقبلي قفز الماضي إلى ذهني، وتمثل لي بجهان وأخي والرفاق المنتهزين والسجن والبحر.

*

هذا اليوم، لم يذهب حسين عبد اللطيف إلى المقهى، بل ظل جالساً في غرفته، لا يفعل شيئاً.

٩ آذار

ذهبت إلى بيت أختي، سررت بأولادها. قالت لي بأنه قد آن الأوان لزواجي، وأنني كبرت. صحيح يبدو أنني كبرت. سررت لأنني لم أجد صهري في البيت.

١٢ آذار

مدار تفكيري هذا اليوم كان: لماذا لم أتزوج؟

١٣ آذار

اليوم كنت أشرح لطلابي قول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

شعرت أنني أتحدث عن نفسي، وربما عن جيلي كذلك.

١٦ آذار

طوال هذا الأسبوع وأنا أسأل نفسي... فعلاً لماذا لم أتزوج... يجب أن أجيب نفسي على هذا السؤال... لا أعرف بالضبط... ربما لأنني انكفأت على نفسي بعد تجربتي الغرامية الفاشلة مع جهان، ربما لأني بقيت مع أمي... ربما لم أجد فتاة تعجبني وأعجبها. ربما... ربما... ربما لكل هذه الأسباب... لا أعرف.

١٨ آذار

اليوم أرسل لي أخي علي رسالة... إنه يشكرني فيها على النقود التي أرسلها له ليكمل دراسته الجامعية، ويقول عني أنني مناضل. مناضل في سبيل الوطن وأهلي، وأنه يتخذ مني نموذجاً... أخشى أن يكون هذا صحيحاً وأن أكون مثله... وبالتالي يكون مصيره مثل

مصيري... هل سيكون جيله مثل جيلي؟... أتذكر الآن نفسي عندما كنت في مثل سنه.

١٩ آذار

اليوم التقيت برجل في الشارع.. نظر إلي ونظرت إليه، بدا أن كلينا يعرف الآخر... بعد أن وصلت إلى البيت تذكرت أنه الرجل الذي حقق معي عند دخولي السجن وألقى علي محاضرة عند خروجي من السجن.

بلا تاريخ

على الرغم من أن صهري مدرس فلسفة فما من قوة في الأرض قادرة على إقناعي أنه ليس حماراً... جاء إلي ليقنعني أن الغزالي فيلسوف تقدمي، وأن الحكم الحاضر ممتاز... كان في نيتي أن أقرأ اليوم كتاب «دويتشر» عن المسألة اليهودية... جاء الصهر العزيز وبقي ساعتين... من قال له أن يأتي؟ أشك أحياناً في أنه يتجسس علي.

٢٥ آذار

الاسم: حسين عبد اللطيف

مكان وتاريخ الولادة: دوير الليل محافظة طرطوس ١٩٣٤

العمل: مدرس في ثانويات طرطوس الرسمية.

في عيد ميلادي الثامن والثلاثين لا يمكنني أن أفعل أكثر من أن أشرب نبيذاً وأقرأ شعراً للسياب - رمز جيلنا - وأكتب هذه البطاقة لنفسي... إيه... لقد كتبتُ شعراً اليوم.

٢٧ آذار

أحس رغبة في كتابة الشعر الآن... هل هذه عودة إلى نزوات الشباب؟ سأحاول الاستجابة لرغباتي...

كتبت شعراً كذلك اليوم

٣٠ آذار

اليوم في المقهى، وربما للمرة العاشرة، قال لي عزيز إنني سقطت على الدرب، لم أفعل أكثر من الابتسام ومتابعة اللعب... لكنني في طريقي إلى البيت لمت نفسي لأنني لم أبصق في وجهه وأقل: أين كنت أنت يوم كنت في المزة عام ١٩٥٣ وعام ١٩٦٢ بل وعام ١٩٧٢... أشعر أنني أصفع كلما رأيت واحداً من هؤلاء الانتهازيين الذين وصلوا على أكتاف أمثالي.

٦ نيسان

أشعر بالحاجة إلى المرأة... وجه جهان في مخيلتي.

٨ نيسان

ماذا يحدث في هذه البلاد يا ترى؟ اليوم خربشت شعراً.

١٠ نيسان

للمرة الألف أشرح لهم أنني لست مع القيادة السابقة، بل ربما أكون ضدها... لكنني لا أرضى ولا يمكن أن أرضى عن الأسلوب، عن الشكل الذي أزيلت به... كان يجب أن يتركوا الفرصة للقواعد وللديمقراطية لتغير... للمرة الألف كذلك يقولون إنني مثالي أتمسك بالشكليات، أو أنني أناور...

١١ نيسان

... وأنت في غابة الأسماء

يا حبيبتي وطن

١٢ نيسان

كذلك اليوم عرضوا علي العودة إلى الحزب، وأن أكون مديرا للتربية. رغبوني كثيراً، وفي النهاية هددوني... أعدت عليهم معزوفتي وأعادوا علي صداها عندهم... قلت لهم أنني تركت السياسة... نادوني يا رفيق... عندما سجنوني العام الماضي لم أكن رفيقا.

١٣ نيسان

اليوم خربشت قصيدة... لا أعرف لماذا شعرت بالخجل بعدها وكدت أمزقها.

١٥ نيسان

اليوم أنا متأكد تماما أنني أحببت جهان، وأن تجربتي الفاشلة معها هي التي منعتني من حب غيرها.

١٧ نيسان

يجب أن أقولها بصراحة لنفسي: إذا كنت انتهيت حقاً فالسبب هو أنني سرت منذ البداية في طريق يوصل إلى هذه النهاية، لكن هل أنا مستعد للاقتناع بهذا في غير هذه اللحظة... وحتى هذه القناعة ماذا تفيد... لقد انتهيت حقاً...

١٩ نيسان

ما تزال في العالم أفراح تملأ القلب... لكنها تبدو لي مثل مهدنات الأعصاب

٢٠ نيسان

ترتدي الأحلام ثوب الذاكرة

٢١ نيسان

ترتدي الأوهام ثوب الذاكرة

٢٢ نيسان

اليوم لم أرتح في المقهى... يبدو لي أنني مللت هذا التكرار المسئم. حتماً لن أذهب غداً.

٢٣ نيسان

عادل عبد الله... هذا الطالب في الصف الثالث ثانوي، سيكون له مستقبل جيد... إنني أسجل هذا في مذكراتي واحفظ وجهه جيداً. الوحيد الذي أقرأ في وجهه مستقبلاً مشرقاً من بين كل طلابي.

٢٩ نيسان

اليوم سألني عادل عبد الله: بكم سيصبح كيلو الخبز بعد عام... هل كان سؤاله خبيثاً أم نتيجة اهتمام بالواقع؟... مرة ثانية أكتب في هذا الدفتر... لهذا الشاب مستقبل.

٣٠ نيسان

اليوم سألني سليمان: لماذا ما عدنا نراك في المقهى... قلت له إنني مشغول... لم يقتنع بجوابي... معه حق... لكنني لم أجد رغبة في توضيح الأمر له... خاصة أنه قال: لكنك تذهب إلى مقهى البحر.

٢ أيار

مقهى أبي عادل على الرصيف البحري الجديد... أصبحت أرتاح عندما أجلس إليه كل مساء، أراقب البحر وأرواد والسائرين...

اليوم رأيت عادل عبد الله يسير مع فتاة على الرصيف... الزوارق جميلة.

٣ أيار

إنني أزداد مع اقتراب الصيف والعطلة انعزالاً عن الناس والتصاقاً بالبحر والكتب ونفسي... أتذكر الآن قول اليوت:

علمنا أن نبالي

وألا نبالي

٤ أيار

البحر رائع... من أعماق الذاكرة تذكرت:

ما أحسن العيش لو أن الفتى حجر   تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

اليوم كذلك... كتبت شعراً.

١٦ أيار

وكان البحر مرآة ليأسي

بودلير

١٦ أيار

إنني أحبك... أحبك يا جهان.

* * *

٢ـ البداية

لم أوراقه وصحفه، ووضع على الطاولة ثمن فنجان القهوة ثم سار باتجاه الرصيف البحري الذي يفصله عن المقهى عرض الشارع فقط. بدأ مساراً يومياً مكرراً من المرفأ الصغير الذي يحمي زوارق الصيادين والمسافرين إلى أرواد حتى مقابل ثانوية الصناعة... كان الرصيف مزدحماً بالناس مجموعات ومثان لكنه كان ـ ككل مساء ـ يسير وحيداً وسط الجمع، محيياً هذا وسارقاً نظرة من تلك. يبتسم حيناً، وأحياناً يعبس، وفي كل الأحوال يبقى وحيداً مراقباً البحر والناس، مفكراً بأفكار مثل: لماذا لم أتزوج؟ ماذا حدث لجهان؟ هل سيستمر طريق حياتي هكذا؟ ما النهاية من كل هذا.؟ لماذا يأتي الناس ـ وأنا ضمنهم ـ كل مساء ليسيروا هنا؟ ماذا يحدث في هذه البلاد؟ لماذا لا يحتج هؤلاء الناس على غلاء الأسعار وقلة الأجور؟... كان أحياناً يفكر بالماضي ومرات بالمستقبل، وعندما يضبط نفسيه مفكراً بالحاضر يهرب نحو الماضي وجهان... قلَّ ذهابه إلى مقهى المنشية وازداد انعزاله بنفسه وبالكتب والموسيقى، وبأوراق يسمي ما يكتب عليها قصائد، وأحياناً مذكرات وخواطر، وفي الأيام الأخيرة ـ والفصل صيف ولا عمل لديه ـ بدأ لعبة كتابة جديدة، بالطبع هو لا يعرف اسمها الحقيقي، أو أبعادها، وبداية أي شيء يمكن أن تكون... هذه اللعبة... حتماً هو لا يدرك الاسم الحقيقي، بل وخطر هذه اللعبة،

لكننا ـ نحن الذين يعنينا أمره ـ نعرف ونأسى، لكن التيار أقوى من هذا الزورق، فمنذ عشرين عاماً بدأت ـ وما تزال مستمرة وبقوة ـ عملية نحر وانتحار وإجهاض أجيال ... يا حسين عبد اللطيف.

*

أواخر الليل، وبعد أن تيقن أنه انفرد بنفسه تماماً بدأ يلعب لعبته الجديدة... بدأ يكتب.

حبيبتي جهان

ثمة موضوع أتمنى لو أستطيع مناقشته معك، كنت أرغب لو نستطيع، أن نجلس معاً ونتحدث فيه، فكرت بالكتابة إليك، وأنا أود أن أسألك رأيك حول تبادل الرسائل، متابعة حوار ـ هل أقول علاقة؟ ـ بدأ بيننا منذ زمن، إن كان وضعك الشخصي ما يزال كما كان وقتها، وأرجو إخباري على العنوان المذكور إن كانت لديك رغبة مماثلة، أو أنك تعتبرين الموضوع منتهيا.

آمل أن توافقيني الرأي. إنه من المفيد لكلينا ـ وليس هناك مخاطرة ـ أن يكون بيننا علاقة ـ هل أقول جديدة ـ وأنا لا أتوهم نتائج مسبقة إنما أنطلق من مسلمه ـ هل هي صحيحة يا ترى ـ وهي أننا ـ كلانا ـ نملك وعياً كافياً لمتابعة السير في طريق بدأناه معاً... ما عدنا نملك وقتاً للتصرف كالسابق... ما رأيك.؟

عنواني: طرطوس ـ مقهى البحر ـ يصل ليد السيد حسين عبد اللطيف.

حسين

حبيبي حسين

منذ زمن - يخيل لي - أنني أنتظر رسالة منك، وها قد أتت، كذلك أنا أتمنى لو كنا نستطيع أن نجلس معاً ونتحدث لدي رغبة مثل رغبتك بعودة - أم أقول بدء - العلاقة بيننا.

هل من الضروري أن أقول لك أنني كنت طوال السنوات السابقة أفكر فيك، وأشعر بالحاجة إليك، فأهرب من ذكراك إلى أعمال تنسيني إياك... لكن لا جدوى فأنت في مخيلتي حيثما ذهبت، ومهما عملت... في الليل عندما أسمع الموسيقى أراك وفي الليل عندما أكتب مذكراتي... أراك... واشعر بنفسي أكتب لك... أكتب لي... كيف تعيش؟... كيف تقضي وقتك.

حبيبتك جهان

*

حبيتي جهان

كنت أعرف أنك ستوافقين... ما زرعناه في الماضي لن يضيع وبذارنا لن تأكله الطيور... سررت برسالتك.. ووجدتك فيها... هل أقول وجدت نفسي كذلك؟ طوال السنوات السابقة - أنا كذلك - كنت أفكر فيك... حالتك نفسها كنت أعيش، هل أقول كنا نعيش حالة واحدة... كنا معاً... بل ربما كنا واحداً... أنا أنت وأنت أنا... واحداً وما زلنا وواحداً سنبقى... سأكتب لك كل ما يحدث لي... كيف تعيشين، كيف قضيت السنوات السابقة... لقد تذكرتك كثيراً وخاصة في الأوقات التي كنت أحس نفسي فيها وحيداً. كنت لي الملجأ... لا

داعي لأن نتقيد رسالة برسالة... كلما شعرت برغبة في الكتابة إلي... أكتبي لي... أنا كذلك كلما شعرت بالحاجة للكتابة إليك سأكتب.

حسين

*

حبيبتي جهان

اليوم استيقظت في التاسعة، غلت لي أمي فنجان قهوة قرأت حتى الثانية، تغديت، نمت، ووقت المغرب ذهبت إلى مقهى البحر، جلست أتفرج على الناس الذين يروحون ويجيئون وكنت أسأل نفسي: ما الغاية من حركتهم المعادة هذه؟ عما يبحث هؤلاء الناس وما يريدون؟... لكنني، وبعد أن ضجرت من الجلوس، قمت ونزلت بينهم وكررت معهم العمل نفسه.

لو كنت معي كنا سرنا معاً... إنني أسمع الآن أغنية لفيروز... لك حبي.

حسين

*

حبيبي حسين

اليوم استيقظت الساعة التاسعة، شربت فنجان قهوة، قرأت، تغديت، ووقت المغرب ذهبت مع إحدى صديقاتي لشراء بعض الأغراض النسائية... كان الشارع مزدحماً، وسألت نفسي ـ مثلك ماذا يريد كل هؤلاء الناس؟ لو كنت معي الآن كنا سمعنا معاً فيروز.

حبيبتك جهان

*

حبيبتي جهان

أنت رأيت البحر حتماً، لكن هل تعرفينه حقاً؟ هل يعني لك أكثر من اتساع مائي لا نهائي؟ البحر نافذة، والبحر فضاء، البحر حمامة أليفة، والبحر امرأة.

«- لكن لماذا تبالغ يا حسين.

- يا جهان أنا لا أبالغ... إنني أرى الأشياء هكذا».

هذه الليلة لم يستطع متابعة الكتابة، قام إلى فراشه، أطفأ الضوء ونام.

حبيبتي جهان

اليوم، بينما كنت ذاهباً إلى مقهى البحر، رأيت عادل عبد الله، إنه أحد طلابي، وأنا أرى له مستقبلا حقيقيا، وأحبه، دعوته للجلوس معي، جلسنا وشربنا معاً قهوة، كان مرتبكاً، فربما هي أول مرة يجلس مع أستاذ له في مقهى... بعد أن جلسنا سألني: أراك كل يوم على البحر... ماذا يعني البحر بالنسبة لك؟ قلت له: البحر يذكرني بقول بودلير:... «وكان البحر مرآة ليأسي».

وأنت تأتي إلى البحر كذلك... ماذا يعني لك... قال: بالإذن من بودلير... وكان البحر مرآة لأملي... قلت له: ولكن البحر يرتبط في أذهاننا بالمستعمرين الذين جاؤوا عن طريقه... قال الخنزير: وعن طريقه ذهبوا كذلك...

إنه شاب ممتاز، وقد قال لي بأنه يشتغل في الصيف عاملاً في المرفأ، أتمنى لو أستطيع أن أراه كل يوم... وقد دعوته ليأتي غداً... أتمنى لو تكونين معنا.. إنني أحبك يا جهان... ليس لي غيرك... لا

أحد أحكي له عن حياتي إلاك... إحكي لي أنت عن حياتك... . إنني أحبك يا جهان... ليس لي غيرك... لا أحد أحكي له عن حياتي إلاك... إحكي لي أنت عن حياتك... إنني أحبك.

حسين

*

حبيبي حسين

وأنا كذلك اليوم ذهبت إلى السينما مع إحدى طالباتي، وقد أعطتني كتاباً قالت لي إنه ممتاز وأنها معجبة به واسمه «المرأة والجنس» لنوال السعداوي. وقد تحدثنا عن حرية الفتاة وارتباط ذلك بوضعها الاقتصادي، وعن الأخلاق البالية عندنا فقالت لي: لم أكن أظن أنه يمكن أن أتفق في الرأي مع إحدى مدرساتي. في نفسي كنت أشعر أنني قد أتفق معها في الرأي، وحتماً أنا متفقة، ولكنني لا أستطيع أن أتصرف مثلها... أليست هذه مشكلة جيلنا يا حسين؟ إنني أحبك يا حسين، وآمل أن تكتب لي دوما.

حبيبتك جهان

*

حبيبي حسين

«لكنه، وما أن كتب هاتين الكلمتين حتى شعر بالتعب، وأنه لا يستطيع المتابعة، وأنه شديد الحاجة للنوم، أغلق الدفتر، خلع ثيابه، استلقى على فراشه، أطفأ الضوء ونام».

*

حبيبتي جهان

أحس بفرح غامر، أريد أن أحتوي هذا الكـون بيـن ذراعـي. إننــي أحبك يا جهان، وأشعر أن المسوغ الوحيد لاستمراري هو حبك... مـا أروع الحياة وأنا أحبك... اليوم كان ضوء القمر ساطعاً فوق البحـر... كـان لونـاً رائعـاً، وكـانت النسمات هادئــة شــعرت برغبــة جامحــة لاحتضان هذا العالم ومعانقة البحر والقمر والأثير والتراب وجهان... سألت نفسي ماذا كان سيعني هذا الجمال بالنسبة لي لولا جهان، إننــي أحبك يا جهان... اكتبي لي يا جهان... اكتبي كل شيء يا جهان.

حسين

*

حبيبتي جهان

كان مساءً رخياً، وكان البحر رفيقاً يتلون سـطحه كـل دقيقـة ومـع كل خطوة تخطوها الشمس عبر سهوب البحر البعيـدة... وكـان هنـاك عادل عبد الله... أوتذكريـن مـا كتبـت لـك عنـه؟ تحدثنـا عـن البـرامج المدرسية والعام الدراسي القادم قريباً، وجمال البحر... قلت له: كلانـا مرتبط بالبحر. أجابني: لكن ارتباطي عكس ارتباطك... كان الملعـون يبتسم وهو يضيف: كل منا يرتبط بسـاحل. فـهمت مـا يريـد وشـعرت إنني لا أملك الجواب... أشعر بفرح عندما أجلس مع عادل وأتمنى لو كان أكثر طلابنا مثله... أحبك يا جهان.

حسين

*

حبيبي حسين

كنت أحس أنني انتهيت، وأنني اسير في طريق مسدود حتى أتت رسالتك... فكانت منارة، وكانت دربا عريضا بعد مسالك ضيقة مدمية للأقدام... كانت بحرا رخياً ذات مساء...

من كثرة ما لدي... أحتار ماذا أقول... سأكتب لك فيما بعد، أعذرني الآن... إنني تعبة، وسأنام... أحبك يا حسين.

«أطفأ ضوء غرفته ونام».

*

حبيبتي جهان

على الشاطئ - هو يقول الساحل - جلسنا معاً، وكنا نتحدث، جلستنا على الشاطئ أوحت لي بأن كلينا واقعياً ورمزياً، على الشاطئ. هو على شاطئ البداية، وأنا على شاطئ النهاية... هل يحس هو مثلي... أشار لي مرة إلى هذا... حدثني عن أهله وقريته، عن فقره وعمله الصيفي في المرفأ والوقائع التي عرفها من عمله في المرفأ... قال لي: أن أجرة العامل الرسمية حوالي أربع ليرات سورية... لا أكتمك إنني لم أكن أعرف هذا... قال لي كذلك بأن أحد العمال قال له: منذ خمس سنوات كان متوسط سعر الحذاء خمس عشرة ليرة سورية واليوم لا يوجد إلا الحذاء المطاطي بسعر ثلاث ليرات ونصف، أو الحذاء الجلدي بسعر ثلاثين ليرة سورية... ثم سألني: ألا يعني هذا وضوح تمايز الطبقات عندنا؟... إنه يهتم بأمور يظنها الآخرون عادية، لكنه يتوصل منها إلى استنتاجات لا يصلها الآخرون... أشعر أحياناً أنه يعلمني أشياء جديدة... يعلمني طريقة

تفكير جديدة.. آه يا جهان يبدو أن السفينة رحلت وتركتني على الشاطئ. منذ زمن بعيد أتمنى لو أكون مثله. أعرف أنه يعاملني بطريقة رسمية، وربما يرثي لي في أعماقه. أحبك يا جهان.

حسين

*

حبيبتي جهان

إن الحياة تزداد تعقيداً في واقعي وذهني، وأنا أزداد قلقاً وخوفاً من المستقبل.. ومع الأيام بدأت الحياة تبدو بالنسبة لي مسألة صعبة الحل... وربما تحدياً لم أنجح في الاستجابة له... وأنني إذا لم أكن منتهياً الآن... فإنني سائر ولا شك في طريق تؤدي إلى النهاية... لهذا أحبك وأتعلق بك يا جهان... أنت ما يربطني بهذه الحياة.. أنت الضوء وسط الليل الذي أقف فيه وحيداً.. منذ أسبوع لم أره وقد كانت أحاديثه تريحني... إنني وحيد، ومع الأيام يزداد إحساسي بالوحدة، وبأنني مختلف عن الآخرين، وأنني لا أستطيع الاندماج بهم، ربما هذه هي جرثومة مرضي... إنني أحبك يا جهان... وأتمنى لو كنا ما زلنا معاً في سنك يا عادل عبد الله.. أليس كذلك يا حبيبتي جهان؟

حسين

*

حبيبي حسين

الوحدة قدر مكتوب علينا، لقد بدأنا بداية خاطئة يا حسين وعلينا أن نتحمل النتيجة.. مثلك أحس بالوحدة، والشيخوخة تزحف في

شعري ونفسي... حبك يجدد شبابي إنني أحبك إنني أحبك و... ماذا أقول يا...

«أحس حسين عبد اللطيف أنه لا يستطيع متابعة الكتابة، وأن كل هموم العامل تجثم فوق صدره، لم يكن هناك موضوع محدد لمخاوفه وهمومه، كان يحس ثقل العالم والواقع، ثقل الماضي والحاضر والمستقبل، وأنه وقع في مصيدة يسميها أحياناً مصيدة القدر، وأحياناً بالمتاهة، ومرة قال أنها مهزلة، لكن عادل عبد الله قال واصفاً مدرس الفلسفة ـ يعرفه حسين تماماً ـ إنه ضحية ظرفه التاريخي».

فهل بإمكاننا اعتبار حسين عبد اللطيف كذلك ضحية ظروفه التاريخية؟ وبديهي أننا نعني بهذا، الظروف العامة التي كونت التاريخ الحديث لمنطقتنا، والظروف الخاصة التي عرضت لحسين عبد اللطيف... أم أنه مجرد مثقف فرد لم يستطع فهم الواقع التاريخي، وبالتالي لم يستطع الاستجابة له؟... هل بإمكاننا أن نفهم حسين عبد اللطيف هكذا..؟ فلنتعاون معا على دراسة وفهم حسين عبد اللطيف، فهو ظاهرة في حياتنا إنه ليس مجرد فرد... إنه جيل كامل. إنه مرحلة.

*

حبيبي حسين

إنني أحبك... وأحس الأمور غائمة في ذهني... أشعر بهموم كثيرة، لا أدري بالضبط مصدرها... لكنها تحاصرني من كل جانب... إنني وسط عاصفة قد تتجه إلى أي مكان... إنني أسيرتها... أكتب لي.

جهان

حبيبتي جهان

واليوم ـ كذلك ـ رأيت عادل عبد الله... حدثني عن أمور كثيرة... بدأ ينطلق معي ويتجاوز وضعه كطالب مع أستاذ... هل أقول بدأ يثق بي؟... حدثني عن القصص التي يحكيها له العمال عن الانتخابات النقابية المزيفة، وعن الموظفين الذين يسجلون كعمال في النقابات، وأنهم هم الذين ينجحون في انتخابات النقابات، لا العمال الحقيقيون... حدثني عن قوانين التعويض على التجار في الشركات المؤممة إذا انخفضت الأسعار، أوضح لي أن التجار يستفيدون من المصانع المؤممة أكثر مما يستفيد المستهلك أو العامل... أحاديثه تذكرني بمفهوماتي للسياسة عندما كنت في مثل سنه... كنا ننطلق من شعارات عاطفية حماسية أما الآن فعادل ينطلق من وقائع وإحصاءات... لو كنا انطلقنا منطلقهم لما تعرض جيلنا للكارثة التي تعرض لها... ما كان تمزق... ما كان وقف في الصحراء هكذا... مثلي... لكن من المسؤول؟ هل كان بإمكاننا أن ننطلق منطلقهم ونفكر بطريقتهم الآن؟ يجب أن نعترف فهذا الاعتراف الذي هو اعترافنا، هو اعتراف بأننا نعترف، ومن يعترف والذين يعترفون فلا اعتراف اعتراف الـ...

وكما صار يحدث مرارا في هذه الليالي، شعر حسين بالدوار والتعب وفقد القدرة على التركيز والمتابعة، ألقى القلم، بينما كانت سحابة سوداء تحوم في جو الغرفة ما لبثت أن اتخذت أشكال وجوه يعرفها جيداً، وجوه طاردته في الشوارع، وعذبته في السجن، وبصقت في وجهه، وكانت تختلط بوجوه يحبها وأخرى يكرهها

وعلامات استفهام وطرق وجبال وصخور وسياط وسجائر تطفأ في الجلد وأناس ونواجز وألسنة تمتص الدم وأيد تعتقل الحرية والطيور ... وأخيرا أغفى.

*

حبيبي حسين

إنني خائفة وسأنتهي قريبا إلى استمرت الأمور هكذا إنني عرضة لتخيلات... أقول أنها تخيلات عندما تذهب عني، لكني أحسها حقائق عندما تكون متسلطة علي. حبيبتي جهان: الأمور صعبة وهذه التخيلات والأحلام ما تزال تطاردني... ساعات صحوي الوحيدة هي الأوقات التي أرى فيها عادل عبد الله... حبيبي حسين: إنني أحبك والمخاوف تطاردني... ما الذي يشدك إليه؟ يشدني إليه أنني أرى فيه شبابي الذي كان يجب أن يكون هكذا. أرى فيه النقطة التي كان يجب أن أبدأ منها. ها هي الصخور تطاردني، السياط... إنهم يضربونني الآن. إنني أصطدم بجدار يا حسين. إنني أصطدم بجدار يا جهان. نصطدم بجدار. إننا ننتهي. ننتهي معاً يا حبيبتي. إنني أحبك يا جهان. أحبك يا حسين. جهان... جهان. الحياة والواقع والحياة يا جهان. أحبك يا جهان...

*

التعب يتغلب عليه، وأشياء الغرفة تبدو له في أشكال مختلفة عن حقيقتها. يغفو على كرسيه.

٣- آخر ضوء في الليل

أمامي المدى اللا نهائي، وخلفي سلسلة الجبال، وأنا على الشاطئ معلق بينهما. أتذكرين كم حدثتك عن هذا المشهد يا جهان؟ لكن الشط تغيّر. وها أنا على الشط. هل أنا متغير كذلك؟. فيما مضى كانت مثل هذه الموجة تتلاشى وادعة على رمال الشاطئ. أمامي المدى اللا نهائي وخلفي سلسلة الجبال وأنا على الشط معلق بينهما.

«وبينما هو يكتب سمع صفارة باخرة في المرفأ الجديد، أعقبه صوت صفارات القطار الجديد كذلك».

... صفارات البواخر، وصفير القطار، وأمامي لا نهاية المدى والبحر، وخلفي سلسلة الجبال وأنا على الشط معلق بينهما، صفارات البواخر، وصفير القطار، وها طرطوس قد أصبحت مدينة كبيرة وأنت لا تستطيع أن تقف على رمل الشاطئ مباشرة كما كنت تفعل منذ عامين. ثمة حاجز بيني وبين البحر، ربما بيني وبين المدينة التي عرفت. صفارات البواخر وصفير القطار والرصيف البحري، وأين المدينة التي لا يرى في بحرها سوى قوارب الصيد وقوارب السفر إلى أرواد. أين الرصيف البحري الصغير الذي تجلس عليه من هذا الرصيف الجديد الطويل الذي يفصل المدينة عن البحر، يفصل المدينة عن ماضيها، عن أمواجها التي كانت تتلاشى وادعة على رمال الشاطئ؟ الآن دخلت في حياة شباب المدينة وأطفالها أصوات

جديدة: صفارات البواخر وصفير القطار، وفي أيامنا لم نكن نسمع سوى صوت الأمواج التي كانت تتلاشى هادئة على رمال الشاطئ.

الآن تتكسر الأمواج، وصوتها يجاوب صفارات البواخر وصفير القطار. أول مرة رأيت القطار في حياتي في طريق حمص وبعد أن أصبحت شاباً. والآن أصبح القطار عاديا في حياة سكان البلدة تماما كالبواخر ومقاهي البحارة وملاهيهم. كم قرأنا عن الموانئ البحرية وحياتها، وبنينا الأحلام أنا وأصدقائي، أحلام التسكع على أرصفة موانئ المتوسط: الاسكندرية، بيروت، مرسيليا، كنا نريد السكر على أرصفة مرسيليا ولم نكن قد تعلمنا الشرب بعد، لكننا كنا نريد السكر على أرصفة مرسيليا، والنوم على أرصفة الاسكندرية مع الصعايدة واليونان، ومع العمال السوريين في بيروت. لم يكن في مدينتنا ملهى واحد. كنا نراقب السفينة التي تعبر البحر أمام مدينتنا... صفارات البواخر وصفير القطار والرصيف. أمامي البحر اللانهائي وخلفي سلسلة الجبال، وأنا معلق بينهما، والتغير ليس قليلاً، من المحل الوحيد لبيع الخمور في البلدة إلى خمارات البحارة وملاهيهم، ومن المقاهي الصغيرة إلى المقاهي الكبيرة، من مطاعم أهل الريف الصغيرة إلى مطاعم الأغنياء وكبار الموظفين، والمشارب صار فيها نساء مصريات. هذه البلدة تغيرت حتماً. ولأول مرة أدرك هذا التغيير وكأنه مفاجأة. كأنني أدرك كل التغييرات التي حصلت خلال السنوات السابقة دفعة واحدة. ها أعلام البواخر ترفرف وكأنها تعلن غزو القبيلة وافتضاض البكارة، وربما اصطيدت السمكة. ها صياد سمك قديم. اغتصبت بكره، اغتصبها قرصان، إنني يتيم... ملقى على

رصيف كبغي غير محترفة في مدينة كبيرة. هل سبقني الزمن؟ فقدت شيئا وربما لن أسترده إلى الأبد. الآن أفهم لماذا تبكي الفتاة ليلة زواجها الأولى. صفير القطار وصفارات البواخر والحانات والبحارة والوسكي. وعلي أن أعترف بالحقيقة، صفير البواخر والقطار ومحطات الركاب والحانات والبحارة والبغايا والوسكي والزمن يسير مسرعا والناس يشيخون باكراً هذه الأيام... الناس يشيخون فجأة... لماذا لم أقض شبابي كما يجب... لماذا انتهيت هكذا.

...وتزوجت أيتها المدينة التي كنت طفلة يوماً ما. تزوجت أيتها الطفلة البحارة والحانات والبواخر والقطارات، ونسيت أولئك الذين عشقوك طفلة بلا نهود لا تمشط شعرها ولا تضع المساحيق على وجهها، تشمّر عن ساقيها الطفلتين وتنزل إلى البحر كأنها تستلقي في حضن أمها. تلعب على رمال الشاطئ وهي الحبيبة المدللة. لا جدوى. أصبحت شخصا يحمل ماضيين... ماضيا بريئاً كحياة الأطفال، وماضياً حافلاً بالمغامرات كلص عربيد في الخمسين... ماضٍ كان خدعة. لقد كبرت وعلي أن أتقبل الحقيقة: الفجيعة بوفاة بكري الشاب في حادث قطار. علي أن أظهر أمام الناس رابط النفس. علي أن أتقبل التعازي دون دموع. أن أقول: البقية في حياة أولادكم. كلنا على درب النهاية. بينما أهمس لنفسي إنني انتهت قبل أواني يا صفير القطار وصفارات البواخر. لا جدوى مني بعد الآن، وما يحدث هو الحقيقة والأمور تجـ...

ـ مساء الخير أستاذ... ماذا تكتب؟

- أهلا عادل... إنني أفكر... تعرف، الكتابة تجعل انطباعاتنا أكثر تركيزا. أفكر بالمرفأ الجديد ومحطة القطار وأفكر..

- لاشك أنهما سيجعلان بلدنا تتقدم بسرعة أكثر.

*

وبينهما في المقهى البحري جرى حوار طويل في هذا الموضوع، وآخر الليل، عندما خرج حسين عبد اللطيف من إحدى الخمارات دخل غرفته وبدأ يكتب:

بمباشرة يا عادل هل تقبلونني معكم؟ هل تقبل انضمامي لكم، لك، يا عادل. أعرف أن الزمن سبقني. هل تذكر قصيدة برخت التي دللتك عليها «إلى من سيأتون بعدنا» عادل: هل يحاسب الإنسان على نياته أم على نتيجة أعماله؟ كانت نياتنا طيبة وكانت نتيجة أعمالنا البلاد كما تراها في وضعها الحاضر... إنها العيوب التي حدثتني عنها... وأعرفها... عادل... إنني واع لما يحدث. أنت تجدد شبابي... أنت تبدأ البداية التي كان علي أن أبدأها. إنني شخص يدرك انهياره، يسير في جنازة نفسه... إنني أحبك يا عادل، أحبك يا جهان، وباكرا فقدتكما... يا عادل ما عدت أحتمل نفسي... إنني مهزوم... رأسي مليء بآلاف الصور... ما عدت أستطيع التركيز ... كيف سأبدأ عامي الدراسي الجديد غدا؟ إنني أحبك يا عادل يا جهان. حبيبتي جهان لماذا لا أعرف أين أنت؟ وماذا أصبحت؟ هل تزوجت؟ هل صار لك أولاد؟ البعد عن الأحباب موت. ابتعدنا عن بعضنا فمتنا بالنسبة لبعضنا، مات ماضينا وبموته مات مستقبلنا كذلك... لا فائدة لافائدة مني مهما ركضت فلن أستطيع لحاق العربة. الزمن أسرع مني وإني أدرك

انهياري يا عادل أنا لست ضد التاريخ وضد التقدم كما وصفتني هذا المساء على شط البحر ... لكنني بطيء... التاريخ أسرع مني وقد تركني ملقى على الدرب يا جهان... كان يجب أن نتزوج... إنني أحبك، أحببتك... إنني أحبك... إنني أحب هذه الحياة حبا لا تكلف فيه يا عادل إنني أحبك يا عادل... أعرف أنك أحيانا تعاملني برفق، كرجل اجتازه الزمن.. كشيخ خرف... إنك تقتلني بهذه المعاملة يا عادل يا جهان يا جهان يا عادل إنني انتهيت يا جهان يا عادل يا عادل يا جهان يا الناس والبحر والجبال والتعب والموسيقى والطفولة والأحلام والحاضر والأسماك والشاي وكثافات الزمن المعلق في ليالي الموت الذاهب أنهار الوجد العربي العربي الصوفي الذي تقتل ماء الخيل الواقفة عند منابع بحر تركبه الصحراء الماضية للزمن القاتل ثوب العشاق ليل الأبد الآتي نحو مراكب ضوء الشمس العربية في صحراء الغيم العائمة تحت بحار الثلج في زمن لا يعرفه العشاق الأطفال المعتقلون تحت سنابك خيل الله اللابس أحذية الزمن القاتم في ليل الأصوات الرعوية القادمة من ريف لا يعرف إلا الماء العربي في ليل الأطفال المنتعلين ليل الزمن القادم في وجه جهان الآتي من زمن الأطفال يا عادل يا نائم في ثوب امرأة تأكل ماء الليل، الوجد، الحمى، النار، الماء العربي، المطفأة في ثوب امرأة تعرفها أرصفة لا أعرفها من زمن العهر البطولي الواقف جنب حراس منتعلين رماح الخوف النامي في ثوب امرأة لا أعرفها لكن تعرفني في كل الأوجه السائمة بين أرصفة الخيل البحرية الأسماك العارية الآكلة كل ليالي الفجر المظلم في ثوب الشمس القمرية تحت نوافذ لا أعرفها لكن

تعرفني في ليل يأتي يصعد حدود الشمس المطفأة في سجائر شعاع
ليلي آتٍ من زمن لا أعرفه لكن يعرفني وجهاً تعرفه الخيل وأحذية
الليل المحتل ثوب امرأة عاشقة بر البحر الآتي من زمن لا أعرفه
لكن يعرفني يفضحني في ثوبِ امرأة تأكل قشر الموز زمناً لا يأتي
في ليل يأتي ليل الشمس دم الفجر الأطفال في ثوب الفلاحين
المزركشة بنادقهم بالرايات وأنصار بحار الشمس النائمة فوق ليالي
الأرق والشاي والقهوة الدخانية في سجائر طفل تعرفه أزمنة لا تأتي
لكن يأتي ليل يأتي ليل يلبس ثوب الصبح يأتي وأنا لا آتي لكن يأتي
من يأتي يا عادل من يأتي من ليل يأتي في ليل يأتي يأتي قهراً يا
فجراً يأتي يأتي ليل يأتي لكن لا يأتي صوب الشمس يا بشراً شمسي
الأوقات يا ليلاً يأتي بشراً تمشي صبحاً يتسربل بالصبح الآتي من
عند الصبح الشمس الصبح الصبح المعدول المجهون الماكون في
زمن لا أعرفه لكن يعرفني في ليل أبدي يذكرني لكن ينكرني صبح
الوجد الوجهي يفضحني وأنا لا أعرفه في ثوب العمال لكن يعرفني
في ثوب القادم يعرفني يا زمناً لا أعرفه لكني عرفني لا أنكره لكن
ينكرني في ثوب امرأة امرأة ينكرني في ثوب امرأة يعرفني يا زمناً
أعرفه يعرفني يا زمناً لكن ينكرني آتيه من بحر الليل وبحر الشمس
لكن لا يأتيني وينكرني يا زمناً معجوناً بالخيل والليل وبحر الشمس
لكن لا يأتيني وينكرني يا زمناً معجوناً بالخيل وأحذية الأطفال إني
أبكي أتيك وتنكرني إني طفل يبكي يا عادل جهان تبكي والليل بحار
أمطار تأتي وأنا أبكي في ثوب العشاق وأثواب الأمطار وأثواب
الخيل لكن لكن أعرفه لكن يعرفني أضواء العمال وأحذية الفجر

وحلوى الأطفال القتلى أعرفها لكن تتكرني بعد لا صباح الليل أنكرها وتتكرني أزمان تقتلني وأنا آخر ماء الثوب البحري في صحراء أنكرها وتتكرني لكني أعرفها وتعرفني أعبدها تقتلني في زمنْ عربي تعرفه أحذية الليل وأحذية الدم وأحذية الخيل وأحذية الله أحذية الأمطار أعرفها تعرفني أهرب لكن تعرفني أعرفك تعرفني إني مقتول ألبس ثوب الدم لكن تعرفني عسى أعرفها وتعرفني لا أعرفها كل الأمطار الآتية أعرفها تعرفني عسى أعرفها وتعرفني لا أعرفها كل الأمطار الآتية أعرفها تعرفني عسى أعرفها وتعرفني لا أعرفها تعرفني أمطار أعرفها تعرفني ماءات أعرفها تعرفني تعرفني أجنحة بيض يلبسها أطفال يعتمرون أطعمة زرقا في لون نياشين الخيل الراكبة بحراً ليلي الأمطار الساغبة في بيداء تبعد عن زمن لا أعرفه لكن يعرفني يعرفني في كل الـ...

واستمر يكتب، أو لنقل يفكر هكذا... لكن يبدو أنه حتى من يدخلون بوابة الجنون الواسعة يحدث لهم ما يحدث للناس الآخرين يتعبون... ينامون، وفي الصباح يستيقظون.

٤ـ كل من سار على الدرب وصل

... يا أيها الطلاب المساكين، انظروا إلي، مستقبلكم لن يكون أفضل من حالي، اهربوا من مقاعدكم، واتركوا هذا الخشب، تحركوا، لقد سجنوني لأنني اعترضت على الشكل، الأسعار ترتفع ولن يستطيع الفقراء شراء الخبز في المستقبل، لن تجدوا في السوق إلا السجائر المهربة، ربما ستشترون الخبز المهرب كذلك تعلموا صنعة أفضل لكم، اللعنة على هذه المدارس عليكم وعلينا أجمعين، اليوم سأشرب، وغداً سأشرب وبعد غد كذلك ودائما سيكونون على طاولة ثانية يضحكون، أنصحكم بتمزيق أوراقكم وكسر أقلامكم وبيع البضائع المهربة. إنني أحب جهان وعادل وهذه البلاد وأشياء أخرى لن أقولها فاحزروها إن كنتم أذكياء. أنتم أغبياء فأنا أستاذكم وصهري كذلك... إنني أنصحكم... انظروا ستموتون من الجوع أو تدخلون معهد الجاسوسية أو مدرسة لتعليم الصفير والشعارات ومواد أخرى لا تعرفونها لكن ستعرفونها، وبعدها تصبحون وطنيين... إنني أحب هذه البلاد وأحبكم وأعرف أنكم تقولون عني مجنون، ستهربون السجائر الوطنية في أعلام بلادكم وأكفان ماضيكم...

أمي تقول أنها تريد أن تتزوج. من منكم سيصبح عمي؟ الأمور لا تعرفونها، لكنكم تعر..

*

كان واقفاً على الطاولة، وفي آخر درس له لهذا اليوم، والذي هو اليوم الأول في العام الدراسي الجديد، وبما أن التاريخ مهم جداً، فيجب أن نذكر أن هذا العام الدراسي هو ١٩٧٣-١٩٧٤.

طوال النهار لم يكلم أحداً من زملائه، كان يدخل الصف ويبقى صامتاً بعد أن يقول لطلابه افعلوا ما تريدون... كان حافياً وقد ربط فردتي حذائه إلى رقبته، وشمر إحدى فردتي بنطاله وقد تنكب مكنسة كذلك ـ من أين أتى بالمكنسة يا ترى؟ ـ لكن يبدو أنه توجد في بعض الصفوف مكانس.

ترى متى هيأ شكله هكذا؟ يبدو أن الطلاب كانوا مشغولين مع بعضهم، فلم يروه إلا وقد اعتلى الطاولة وبدأ يخطب. كان يبدو أن لديه كلاماً كثيراً ليقوله، لكن الضجة التي أحدثها ضحك الطلاب وتصفيقهم، جعلت المراقب يأتي مستفهماً، والمراقب عاد، وأحضر المدير، وبعدها غاب حسين عبد اللطيف، وقيل في غيابه أقوال:

قيل أنه كان يريد تحريض الطلاب على مظاهرة، لذلك أخذ إلى حيث يؤخذ أمثاله. وقيل أنه ادعى الجنون. وقيل أنه جن حقاً، وأن بوادر الجنون بدأت تظهر عليه منذ العام الماضي بعد أن خرج من السجن، وأنه هذه المرة لم يذهب إلى السجن، بل إلى مصحة عقلية.

قيلت أقوال كثيرة، وأنتم تعرفون ما الذي يجعل شخصاً معيناً يقول رأياً معيناً. قيل أنه الشمس التي تبزغ، وقيل أنه الشمس التي تغيب، قيل أنه الموت، وقيل أنه الولادة. وطالب يقرأ يكتباً قال أنه الموت ـ الولادة... لكن من يدري؟! لعل الناس في هذه الأيام مثلما صاروا يموتون بالسكتة القلبية، أصبحوا ـ كذلك ـ يجنون بالسكتة

العقلية. قيلت أقـوال كثيرة، حتـى أن شـخصا ضعيفـا مثلـي لا يجـرؤ على تسجيل كل ما قيل. لكن وعلى الرغـم مـن كـل الآراء والأقـوال، علينا ألا نبكي عليه، وألا ندينه كذلـك. لـم يكـن شـهيدا، ولا مجرمـا... كان هـذا دوره، وقـد أداه، وعلينـا أن نفـهم أدوارنـا - وأن ننتقيـها - إن استطعنا... أعرف أن هذا صعب وربما حلم... ولكن... لا أعرف ما أقول... أو أنكم ترون الأمور على غير ذلك؟.

ملحق بالقصائد التي كتبها

«حسين عبد اللطيف»

حاد كشمس الخريف

١

قادم من زمن المسافات البعيدة
حيث لا يملك الأطفال إلا مستقبلهم
وحيث الزمن، الحاد كشمس الخريف،
ينلوى مثل طريق جبلي
عبر قرية أسمها: العالم

٢

حذر مثل صياد
تغوص أقدامي في المستنقعات
أبحث بعيني الطفل الجميلتين
عن الحلوى
وعن خاتم عتيق
أضاعته حبيبتي في الوحول

٣

قلت لها
بأنني أحب الحلوى
ووجهها وخاتمها العتيق

لكنها أضاعت وجهها

وخاتمها العتيق

وأنا، بعد أن كرهت وجهها،

ما زلت أغوص في المستنقعات

بحثاً عن خاتمها العتيق

٤

يا اخوتي

يا أطفال الروح في هذا الزمن

الحاد كشمس الخريف

إذا رأيتم ذات يوم

طفلاً ناحلاً رث الثياب

فلا تظنوه فقيرا أو شريداً

اعرفوا أنه طفل

يبحث عن خاتم عتيق

أضاعته حبيبته في الوحول

٥

يا اخوته

في هذا الزمن الحاد

كشمس في الخريف

إذا حدث ورفع رأسه

وسألكم ذات يوم

ـ «هل صحيح أن حبيبتي كانت تملك خاتماً عتيقاً

أم أنها كانت تضحك علي لأنني طفل»

فلا تداروه

وقولوا له الحقيقة

٦

صحيح أنه طفل

وأنه يحب خاتم حبيبته العتيق

لكن على الأطفال أن يغوصوا

في الحقيقة لا في الوحول

من يغوص في الأزهار؟ - من يسبح في البحار؟ -

فنحن حقاً في

زمن حاد كشمس الخريف

هل كنت مجرد طابع بريدي

١

في قرية صغيرة

سماها جدي الوطن

كثرت ـ مؤخراً ـ الوجوه

واللغات وإصدارات طوابع البريد

٢

قلت لحبيبتي

ـ ذات مساء ونحن نتنزه في الحقول ـ

أنني ضد اللعبة

وأنني على آخر نفس

ضد كل هذا

فأنا أعرف قريتي

لا تتحدث إلا لغة واحدة

وأهلها لا يحملون إلا ملامح واحدة

٣

حبيبتي اتهمتني

بأنني ضد الحضارة

وإنني لا أفهم شيئاً

في أمور السياحة
واكتساب النقود
وقد كدت أصدق هذا
لأن حبيبتي قالته

٤

والبارحة عرفت
أن حبيبتي
تهوى جمع الوجوه الغريبة
مثلما تهوى جمع الطوابع البريدية
مع أنني قلت لها
ومنذ البداية
إنني لا أهوى جمع الطوابع
وإنني ضد هذه القرية
إذا كانت ستستمر
في اللعب ... هكذا؟

أطفالنا يبولون على جراحهم

١

قلت لها
إنني من قرية صغيرة في أقصى الوطن
أطفالها يبولون على جراحهم
ورجالها يرسلون أولادهم إلى الحرب
وفي المساء يصلُّون لعودتهم
ثم ينامون مع زوجاتهم
وأطفالهم وحيواناتهم الطيبة

٢

ذات مرة
حدثتها عن عجوز في قريتي
- ماتت هذا العام -
لم تر السيارة في حياتها
لكنها لم تصدق
أنه يوجد عجوز في هذا العالم
لم تر السيارة
فحتى جدتها المحجبة
تملك سيارة

٣

قلت لها
بأنني دائماً أقول عن نفسي
أنني أكره الرومنتيكية
لكنني كذاب
فأنا في أعماقي
صبي رومنتيكي صغير
ـ كنت أقبلها ما بين عينيها
مثلما يقبل عشاق قريتي ـ

٤

قلت لها
أنني أحب شوارع المدن العريضة
وأزقة القرى الضيقة
والأرصفة على ضفاف الأنهار
وأغنيات فيروز
قلت لها كل ما أعرف
وقلت لها كل ما أشعر به
لكنها لم تصدقني
لم تصدق شيئاً مما قلته لها
لأنني أخفيت عنها شيئاً واحداً
قالت لي تجربتي معها ألا أقوله لها

٥

لم تصدق شيئا واحدا
مما قلته لها
مع أنني ـ وحق الإله ـ
كنت صادقاً
في كل ما قلت

٦

ومثلما يفعل الأطفال في قريتي
فعلت...
لكنها لم تصدق
أنه يوجد في هذا العالم
أطفال أو حتى رجال
يبولون على جراحهم

وردة قلبي

١

في ليالي الشتاء الباردة
كنت أتذكر
ما قرأته في الروايات عن الحب
وعندما أفتح المذياع
أسمع أغنيات الحب

٢

وفي ليالي البرد
تفتحت في قلبي
وردة الحب

٣

على ضفة نهر
وفي صباح ربيعي
وبينما كنت أتأبط
كتبي، وأصفّر لحن أغنية حب جميلة
وأنا في طريقي إلى المدرسة
رأيت على الضفة الثانية
صبية كالتي يصفونها في روايات الحب
«جميلة، نحيلة، ضائعة النظرات، تسير بهدوء،

وحنان كسير»

قفزت إلى الضفة الثانية

وأعطيتها وردة قلبي المتفتحة

٤

بعد أسبوع

قابلت حبيبتي مرة ثانية

- بتهذيب تحسد عليه

ومثل أي سيدة برجوازية -

أخرجت من حقيبة يدها

المليئة بالأصباغ

ما كان وردة قلبي المتفتحة

٥

كانت ذابلة

مثل طفل يتيم

ومن يومها

كرهت الحب في الروايات والأغاني

وكرهت طريق المدرسة

فرسان العصور الوسطى

١

ربما لأنني لا أرى العالم
إلا قرية صغيرة،
أهلها يفهمون إلى حد ما
في الزراعة والصلاة،
أكره البطولة والعظماء
وأرفض الدخول في عراك
لأجل امرأة

٢

معا قرأنا روايات العصور الوسطى
عن الفرسان
وعن الصبايا اللواتي ينتظرن
في الخدور أو في الحفلات
لكنني ـ وبينما كانت تعجب
بأولئك الفرسان الشجعان ـ
لم أستطع إجبار نفسي
على الإعجاب
بهذا النوع من الصبايا

هل تغيرت حبيبتي؟

حبيبتي
- عندما كانت حبيبتي -
كانت تقول لي:
- «لماذا تطرح أسئلة سخيفة؟»
عندما كنت أسألها
- ونحن متعانقان -
- هل تحبينني؟
واليوم،
ونحن نجلس متقابلين
قالت لي
- «لماذا تطرح دائما أسئلة سخيفة»
عندما سألتها
- «لماذا ما عدت تحبينني؟»
أيها الناس العقلاء
الذين يفهمون في أمور الحب
أود أن أسألكم أنتم
- هل تغيرت حبيبتي؟

أكثر من ألف مرة

أكثر من ألف مرة
قلتَ لها
بأنني أعرف ما أريد
وأعرفه تماماً:
ليس «الزمن الضائع» ما أبحث عنه
لكنه شبابي
شبابي الذي سرقه
الفقر والانقلابات العسكرية والكتب

حلب ١٩٧٣-١٩٧٤

قصص

حارة الرمل

- ليس أنا الذي خنق جميلة... وحق الله العظيم... ليس أنا الذي خنق جميلة.

ويتعالى صوت «زكور» مرتبكا، فزعا، ناشجاً، في أزقة حي الرمل، وما من أحد سمع شيئا عن موت جميلة، أنا الذي خنق جميلة...، وما من أحد يتهم زكور، بل أن أكثر الناس يسمعون أصوات زكور معتبرين الأمر إحدى بدوات جنونه، لكن الجارة التي دخلت غرفة جميلة، وجدتها مخنوقة فوق سريرها الفاخر.

*

يقع حي الرمل جنوب مدينة طرطوس يسكنه فقراء نزحوا من الريف الجبلي بعد أن ضاقت عليهم الأرض الزراعية، فنزل هؤلاء الفلاحون إلى المدينة واشتغلوا عمالاً في المرفأ الجديد أو في الباطون، أو باعة متجولين، أو خدما في المطاعم والمقاهي، ومع أولادهم الذين دخلوا المدارس، أو باعوا اليانصيب والشكلس وزوجاتهم اللواتي اشتغلن في «الريجي» أو منظفات منازل، سكنوا في غرف وأكواخ استأجروها، أو بنوها على الأرض الرملية الرخيصة التي اشتروها أو استولوا عليها، وبالهجرات الدائمة لسكان الريف المحيط صار حي الرمل هو القسم الأكبر من طرطوس ومثل كل أحياء الرمل الموجودة في اللاذقية وبيروت والاسكندرية يكثر في

هذا الحي مؤجرو الدراجات والسمكرية والحلاقون ومطاعم الفول والحمص والدكاكين الصغيرة بمختلف محتوياتها، ومن هذه الدكاكين الصغيرة دكان أبي يوسف الذي اشتهر فيما بعد بابنة صاحبه: جميلة.

ومثل غيره من سكان الرمل نزح أبو يوسف من القرية بعد أن باع قطعة الأرض الصغيرة التي ورثها عن أبيه، واشترى بثمنها قطعة أرض رملية بنى فوقها ثلاث، غرف سكن واحدة للنوم وحول الثانية إلى دكان خضروات وبعض مواد السمانة، أما الثالثة فقد أجرها إلى حمدان وهو رجل من قريته نفسها يشتغل عاملاً في المرفأ الجديد. كانت أسرة حمدان مكونة من زوجته وطفلين هما البنت سكينة والصبي زكريا، أما أسرة أبي يوسف فقد كانت تتألف من زوجته وثلاثة أطفال: يوسف ومحمد وجميلة وقد تآلف أولاد الأسرتين سريعاً فصاروا في الحقيقة يشكلون أسرة واحدة تعيش في بيت واحد ولا عجب فكثير من أسر هذا الحي تعيش في غرفة واحدة، على الرغم من أن عددها أكثر من عدد أفراد هاتين الأسرتين معاً.

كان الأولاد يلعبون معاً في الحارة وعلى الشاطئ، ومعاً صاروا يذهبون إلى المدرسة عندما دخلوها ومثل كل الأورد كانوا يختلفون، ويدخلون الأهل في خلافاتهم، لكن وحتى في تلك السن كانوا يلمحون بأن جميلة لزكريا، وحتى الأولاد كانوا يعترفون بهذا عندما يلعبون لعبة العروس والعريس.

في الصف الخامس خرج زكريا من المدرسة وفي السادس خرجت جميلة. جميلة خرجت لأنه «يكفيها مدرسة» كما قال أبوها.

أما زكريا فقد خرج إثر مـرض شديد وطويل بـالتيفوئيد، لم يستطع بعدها العودة للدراسة فأرسله والده مع معلـم بـاطون، لكن زكريـا لـم يستطع العمل، وبدأ يقوم بأفعال وتصرفات فسرها بعض سكان الرمل على أنها دلائل جنون ثم اقتنع سكان الرمل، وخاصـة الأولاد، ومـع الزمن، أن زكريا مجنون، ويبدو أن الحي كـان يحتـاج مجنونـه حتـى يكتمل شـيء مـا نـاقص فـي الرمل، وهكذا غدا «زكور» مجنونـاً، فزكريا لا يستطيع الاستمرار في عمل حتى في بيع اليانصيب ويطيل الصمت ويطلب، أحياناً، نقودا من النـاس، ويذهب إلـى حيث يرسله الآخرون ومكانه الدائم أمام دكان أبـي يوسـف، حيث صـارت جميلـة تساعد أباها في الدكان بعد أن خرجت من المدرسـة، أو تحل محلـه أثناء غيابه، وقد ازدهرت تجارة الدكان بعد عمل جميلة فيه إلـى حد جعل أباها يبنـي غرفـة رابعـة صـار يؤجرها لطـلاب المـدارس فـي القرى المجاورة.

وكما تعرفون فالأطفال لا يبقون أطفـالاً، والبنـات يكبرن بسـرعة تفوق سرعة الصبيان، وربما يظـهرن كبيرات، جميـلات، ناضجـات فجـأة، كشـجرة فـي باحـة الـدار، نستيقظ ذات يـوم لنجدهـا مزدهـرة والرجال عادة، يعلنون نضوج الفتيات بمثـل هـذه الأقوال: تطلعـوا... ابنة الكلب... البارحة كانت حافية في الحارة، واليـوم فتـاة شـهية تـهز أردافها... وهذا الذي يحدث لكـل البنـات، حـدث لجميلـة التـي تقضـي أكثر أوقاتها في الدكان، حيث هناك دائما «زكور» جالس في الشمس الصباحية مقابل الدكان منتظرا مهمـة تكلفـه بـها جميلـة «اذهب إلـى المكان الفلاني... رح إلـى حليمـة وقـل لـها... وأحضـر مـن عندهـا..

امش معي إلى السوق... تعال نتسل... إلخ..» ربما تكون جميلة، اعتادت «زكور» كما يعتاد المرء جاره، وقد تكون تألفه كما يألف المرء قرين طفولته، وربما تكون مستفيدة من خدماته. لا أحد يستطيع أن يقرر. لكن «زكور» صار كيد جميلة. كظلها، وخلال طلباتها المتكررة منه، كانت تمزح مع «زكور» وأمام الناس بمثل هذه الأقوال «زكريا عريسي... زكريا سيشتري لي خاتما، سأخطب زكريا، زكريا حبيبي أين سنذهب في شهر العسل يا زكريا». كانت جميلة، جميلة حقا وقد كان يدرك ذلك الطلاب الواقفون عصراً أمام الدكان. ربما كان كلام جميلة مع زكور نوعاً من المباهاة والغنج أمام الواقفين كل عصر أمام الدكان يتفرجون على جميلة ويضحكون من «زكور».

أوائل الصيف الماضي، استأجر جمركي يعمل على الحدود اللبنانية الغرفة الرابعة في بيت أبي يوسف بعد أن تركها الطالبان الريفيان اللذان كانا يسكنانها، والمستأجر الجديد رجل في حدود الأربعين متزوج وله أربعة أولاد يعيشون مع أمهم في قرية بعيدة عن طرطوس، وقد تحمس أبو يوسف لتأجير الغرفة إلى هذا الجمركي بأجرة أقل من أجرتها المعتادة، فهو قبل كل شيء جمركي وعلى الحدود اللبنانية القريبة، يستطيع تأمين بعض الأغراض للدكان ومع الأيام بدأت دكان أبي يوسف تتغير: ترك أبو يوسف بيع الخضرة وصار يبيع عطوراً وصابوناً، ثم خموراً وسجائر وأخيراً قلب أبو يوسف تجارته كلها وصار دكان الخضروات هو «نوفوتيه فينيسيا» أما الجمركي فقد صار موجوداً أكثر الأوقات في النوفوتيه

مع جميلة التي صارت تبدو أنيقة متعطرة، جريئة تفتح مسجلتها إلى أعلى صوت، وهي تعيد أغنيات «فؤاد فقرو» و«فهد بلان»، وعلى الأغلب، فإنه لم يعد من المفاجئ أن نخبر القارئ بزواج الجمركي من جميلة، فسكان الرمل أنفسهم لم يفاجأوا بالزواج، لكن بعض الشبان والطلاب، استغرب أن تتزوج جميلة رجلا مثل أبيها، وله أربعة أولاد... أما «زكور» فما عاد يستطيع الدخول إلى النوفوتيه بل صار يطرد عن الرصيف المقابل، وجميلة ما عادت تخرج أو تتكلم معه عن العرس والخاتم والخطوبة وشهر العسل بل صارت تطرده متأففة بمثل هذه الكلمات «مليحة والله العظيم» ما عاد ينقصنا إلا المجانين.

لكن الأمور ـ كما تعرفون ـ لا تنتهي بمثل هذه البساطة، حتى مع من ندعوهم مجانين.

فاليوم خرج زكريا يصيح:

ـ لست الذي خنق جميلة... والله العظيم، لست الذي خنق جميلة.

ويتعالى الصوت الخائف، الناشج المرتبك، في أزقة حارة الرمل فاضحا حقيقة ما حدث.

١٩٧٧

قصة حب بحرية

وحيد وحزين، وكل ما يذكره الآن، في هدأة هذا الليل البحري المقمر على سطح ناقلة النفط «بلايموث» أن الأسف والحزن كانا في عينيها وهي تقف على باب الدار الخارجي في ذاك العصر وتقول له «أمي لا تسمح لي». يومها مضى إلى البحر وحيداً، غير مكترث لشيء، وهناك وجد باقي الرفاق والرفيقات «عيوش لن تأتي اليوم» قال لهم وكعادتهم كل يوم سبحوا، وتراكضوا في الماء، وطلبوا من زوار الجزيرة أن يلقوا فرنكات في الماء، ليلتقطوها وليتقاتلوا حول من سيأخذها، وحول لا شيء، وكباقي الأيام، كان ذاك اليوم، أما في اليوم الثاني فقد كان حديث عائشة وهي واقفة على باب الدار أطول وأوضح فقد قالت عندما دق «عليّ» الباب وقال لها مثل باقي الأيام «تعالي إلى البحر... امشي» «أمي لا تسمح لي... أم تقول عيب... عيب أن أسبح مع الأولاد... كبرت... عيب لن أسبح مع الصبيان». يومها مضى إلى البحر، وكما في كل يوم، سبح وتقاتل وتدافع مع الآخرين إلى الماء، ثم عاد ونام، لكنه، ومع الأيام، ترك عادة المرور على عائشة كل عصر والطلب إليها أن تذهب معه إلى البحر للسباحة واللعب.

بعد الصيف، وعندما افتتحت المدرسة وكانت عائشة قد ترفعت إلى الصف الخامس صارت تذهب إلى المدرسة وحيدة، بعد أن كانت

في الصفوف السابقة تذهب هي وعلي معا، وعلي لاحظ، ولا يعرف الآن كيف لاحظ ذلك وقتها، أن أهل عائشة ما عادوا يرغبون في مجيئه للدراسة وكتابة الوظائف، مع عائشة، وهكذا بدأ ينقطع عن بيت عائشة، وعن عائشة التي خرجت من المدرسة مثله في الصف السادس، وصارت لا تخرج من البيت إلا مع أمها بل صارت تخجل من سلامات علي. وتندفع راكضة إلى داخل البيت عندما تلمح ابن الجيران عليا قادما من أول الزقاق، وأخيرا انقطع علي عن رؤيتها تماما بعد أن تحجبت وبعد أن غير أهلها بيتهم وسكنوا في طرف الجزيرة الآخر، في بيت جدها.

في السادسة عشرة من عمرها كان علي عندما رست سفينة يونانية مقابل أرواد ونزل قبطانها إلى المقهى وطلب ـ كعادة القباطنة في أرواد ـ بعض البحارة، وهكذا ذهب علي مع القبطان «مانويلي» وتنقل على سفينته في حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم انتقل إلى ناقلة نفط، وبعدها تنقل في سفن وبحار وموانئ كثيرة وتعرف على الوسكي والتهريب وبغايا المرافئ والمشاجرات وحانات الموانئ ونسي كل شيء، نسي أرواد وسباحة الأطفال وصيد السمك مع أبيه وعائشة. وحتى نفسه نسيها في هذه الحياة البحرية التي كان يسبح فيها كحوت صغير جميل.

*

يتعرف البحارة على الخمور والبغايا والتهريب يتعرفون على أعلام الدول وألبسة النساء والموانئ والعواصف والشوارع، يتعرفون على الليل والجريمة وكذب كل ما هو مقدس، يتعرفون على هواء

البحر وقسوة الغرباء. يتعرفون علـى الصداقات العابرة والصداقات العميقة، على الأشخاص الذين تحبهم منذ اللحظة الأولى، والأشخاص الذين يبقون معك سنوات طويلة ثم تكتشفهم في لحظة، في مشـرب أو مشاجرة أو في تصـرف صغير، فـإذا أنـت تكتشـف فيـهم الإنسان أو الحيوان الذي غاب عنك كل هذه السوات الطوال، وربمـا فـي هذه اللحظة، ومن خلال معرفتك بـهم، تعرف نفسك، كبحـار، وكإنسان، تعرف نفسك التي أضعتها في ملوحة الماء وغموض البحـر وخـوف المجـهول أو بيـن أذرع البغايـا وزجاجـات الوسـكي وحطـم مـا لا تدري... لكن إلـى متـى يستمر هذا؟ إلـى متـى يسـتمر رفـع الأعلام وإنزالها ورفعها ثم الإقلاع والرسو والتهريب وتبديل الموانـئ والبعد عن الناس والهدوء... إلـى متـى يسـتمر هـذا؟ لا شـيء يستمر، فثمـة لحظة تأتي - في قلب البحر، في حانة، بين ذراع بغـي - لحظـة يحس فيها البحار بعقم حياته وضيعتها، يحس ضآلته في هذا العالم الواسـع، يحس بحاجته لبيت دافئ تساكنه فيه زوجـة عذبـة تبتسـم وهـي تـروح وتأتي في ملابس البيت، وقتها، فـي هـذه اللحظـة، ينظـر البحـار إلـى القمر، إذا كان في ليلة مقمرة، يشرب كأسه حتى الثمالـة إذا كـان فـي حانة، يتخلص من ذراعي بغي الميـنـاء، يقبـل رفيقـه إذا كانـا يسـيران في ميناء غريب، وقتها يثقب الوطن الذاكرة، وتعـود أرواد والطفولـة والسباحة وعائشـة، وقتـها تغدو البـلاد البعيـدة زوجـة أليفـة مشـتهاة، يتمنى البحار أن يشرب معها فنجان قهوة صباحيا هادئاً، وقتـها تغدو البلاد ملجأ بعد عاصفة وإبحار طويل، وقتها ينظر البحار إلى الـوراء أسفا، وإلى الأمام خائفا وهو يقول: إلـى أيـن تمضـي بـي الحيـاة، أيـن تذهب بي أيها البحر؟

... وهكذا، ذات ليل صيف مقمر، وكان علي على ظهر ناقلة النفط «بلايموث» في رحلتها المعتادة بين الكويت وبريطانيا، قرر علي أنه آن له أن يتزوج، وأن عليه أن يتزوج.

بعد تفتيش طويل في الذاكرة، وكما يجد المرء وجها أضاعه منذ الطفولة، ولم يصادفه إلا في الكهولة، وجد علي عائشة في ذاكرته، ومن على ظهر الناقلة «بلايموث» في عرض البحر، قرر علي أن يخطب عائشة في الشهر القادم عندما يأخذ إجازته السنوية، ومن وقت قراره هذا، عادت عائشة تسكن مخيلة علي. وكأنهما لم يفترقا إلا أمس، كأنهما كانا أمس يسبحان معاً، واليوم سيذهبان عصراً إلى الشاطئ، من وقتها، وفي عرض البحر، صار علي يحب عائشة.

* * *

وحيد حزين على ظهر ناقلة النفط «بلايموث» يفكر بعائشة، عائشة التي يحس أنه أمضى عمره يحبها، عائشة التي يشعر الآن في هدأة هذا الليل البحري المقمر أنه لا يوجد غيرها في العالم، يفكر بعائشة البعيدة، وكل أسى الوحدة في البحر يسكن قلبه بعد أن عاد أوراد الأسبوع الماضي وهو يعرف أن عائشة تزوجت منذ عشرة أشهر.

قليلاً ما يبكي البحارة، حتى عندما يسكرون، لكن علياً، يحس الآن في وحدة هذا الليل البحري، على سطح «بلايموث»، رغبة في البكاء، ويتعجب لماذا لم يبكِ منذ زمن بعيد، يوم فقد عائشة إلى الأبد عصر، ذاك النهار الصيفي القائظ.

١٩٧٧

سماء البحر الزرقاء

نظر باتجاه الشرق، كان البحر ، وخلفه طرطوس، يظهران لعينيه رماديين. «آه... لا جدوى. تعبت باكراً».

- انظر كم تبدو طرطوس جميلة من أرواد

قالت عائشة تخاطب علياً الشارد

- إني أحب هذا المشهد كثيراً

- يبدو البحر بين طرطوس وأرواد كنهر بين ضفتين.

رشف علي من فنجان القهوة، وعاد ثانية يرسل بصره باتجاه البر.

«يجب أن أكون أكثر لطفا مع عائشة. لا أعرف لماذا هذا التعب الذي أحسن. لا أشعر برغبة في شيء...».

- علي، مالك شارد هكذا؟ هل أنت منزعج؟

- لا... لا... حالتي طبيعية... عندي رغبة في...

ولم يكمل، كان يود أن يقول «عندي رغبة في الصمت»، لكنه استدرك حتى لا يجرح مشاعر عائشة التي دعته إلى هذه النزهة البحرية في أرواد.

- انظري، ها زورق صيد يقوده طفل.

- جميل منظر الأطفال يقودون الزوارق، إنه يوحي بالثقة والأمل.

صمتت هنيهة ثم تابعت:

إنه يوحي بالمستقبل كذلك.

من أمام الزورق طار نورس، وفي الأفق الشرقي بانت غيمات بيضاء تتلاشى، وعلى الرصيف كان ثمة عجوز يربط زورقه، ومن مرفأ طرطوس أتت أصوات باخرة تطلق صفارات الوداع للمدينة.

«عائشة مازالت متحمسة للحياة، ما زالت أقوى على المبادرة والـ...».

- ما رأيك في أن نشرب فنجاني قهوة آخرين؟

- سنشرب أكثر من فنجانين.

- صرت أعرف حماستك للقهوة... أنت مدمن.

- مدمن قهوة فقط.

«وبحث عن موضوع يتكلم فيه مع عائشة، لكنه أحس باللاجدوى. لماذا رأسي فارغة، وقلبي كالمقبرة، أتمنى أن أبقى مع عائشة طول الوقت، لكن ليس لدي ما أقوله لها، أحس نفسي جافا و...».

أمام المقهى كان صبي في حوالي الخامسة عشرة ينظف زورقه، وعجوز يصلح شباكه، بينما امرأة تنادي طفلها للعودة إلى البيت.

- جميلة أرواد... أليس كذلك؟

- قلت لك أني أحبها... أنا آتي إليها دائماً.

كانت السماء صافية الزرقة، وكان البحر الخريفي أزرق ساجياً، خلفه باتجاه طرطوس تبدو كروم الزيتون السهلية، وخلفها الجبال الناعمة.

«لم يحن العمر لليأس بعد. ما زلت في الثلاثين. لماذا أنا يائس وجاف هكذا. ما زال بالإمكان فعل شيء. آمل أن تكون مجرد حالة نفسية عارضة على الرغم من أنها مسيطرة منذ ثلاثة أعوام. هذه الـ...».

- علي... قد تستغرب أنني أنا التي دعوتك إلى أرواد... ربما من الغريب أن تكون الفتاة هي المبادرة في مجتمعنا، لكني واثقة أنك ستفهمني على حقيقتي.

- لا... ياعائشة... أنا احترمك... احترم أمثالك... إنني سعيد بمبادرتك.

وبحث عن كلمات يشكر بها عائشة ويبدي إعجابه وتفهمه، لكنه صمت، ونظر إلى بر طرطوس، وفي الصمت دخل سمعه صوت راديو المقهى وهو يتحدث عن آثار زيارة السادات لإسرائيل.

«يبدو أن عمري كان كذبة وأنني شخص بلا معنى أنا وأمثالي والـ...»

- علي... لن أخجل من مشاعري... أنت زميلي في التدريس، وقد أثرت انتباهي بوعيك وصمتك... لدي رغبة في أن يزداد تعارفنا.. وبأن نلتقي.. أنا أعرف أنك قد تحرج من دعوتي... أعرف طبيعة العلاقات والنظرات... لذلك بادرت أنا... آمل أن تفهمني جيداً...

- أنا أشكرك يا عائشة وآمل أن نلتقي باستمرار... أنا أدعوك الجمعة القادمة إلى الدريكيش... سنقضي النهار كله... لي صديق هناك ويمكن أن نزوره.

إلى مرفأ أرواد الصغير دخلت سفينة كبيرة، وخلفها ثلاثة زوارق صيد صغيرة. كانت السفينة تطلق صفارات التحية، وكان البحارة على ظهرها مشغولين بإعدادها للرسو، بينما كان هناك بحاران يلوحان بأيديهما للجزيرة.

«عائشة فتاة رائعة لو تعرفت إليها أيام كان القلب شابا، أحس الآن أنها أكثر فتوة مني بعشرات السنين على الرغم من أننا في سن واحدة تقريباً. لكن يبدو أن...».

- والآن هل تقول لي لماذا أنت صامت أكثر الأحيان؟

«ماذا أقول لها. لا أعرف. قلبي راكد كهذا البحر».

- لا أعرف... غالباً لا أجد ما أقول.

ومرة أخرى ساد الصمت بينهما، لكن أصوات الأولاد والصيادين والبحارة وزوار المقهى والمذيع الذي ما يزال يتحدث عن السادات وإسرائيل كانت تعلو.

«آه يا عائشة ماذا أقول لك، تحدثنا مرة في غرفة المدرسين عن جيلنا. هل تذكرين ما قلته وقتها. ولدت عام ١٩٤٨ وفي ذلك العام ولدت إسرائيل، دخلت المدرسة الإبتدائية عام ١٩٥٦ عندما وقع العدوان الثلاثي، دخلت المرحلة الإعدادية عام ١٩٦١ وقع الانفصال، دخلت الجامعة عام ١٩٦٧ حصلت الهزيمة. كنت في الجيش عام ١٩٧٣، عشقت فتاة عام ١٩٧٥ وضحكت علي، ألا ترون حياتي سلسلة من الهزائم. هذه الحياة الـ...».

- غالباً لا تجد ما تقوله؟ لكنك عندما تتكلم في السياسة لا نعرف كيف نوقفك.

- وقتها أكون هارباً من الصمت.

قفز صبي إلى البحر. رسا زورق على الرصيف، غادر زورق أخر محمل بالركاب أرواد إلى طرطوس. بدأ بعض بحارة السفينة الكبيرة النزول بعد أن رست.

- علي... أصبحت أعرفك... ألا تجد أنك تبالغ؟
- هل تذكرين حديثنا في غرفة المدرسين؟ هل هذا الـ...
- أذكره تماماً... من وقتها أردت أن أعرفك أكثر... من وقتها شعرت أنك تستسلم للظروف إلى حد ما.
- يبدو أنك ما زلت تملكين العزيمة والقـ...
- ليست مشكلة عزيمة وقوة بل هي...

وسكتت ثم أغضت. كان علي يرنو إلى وجهها وعينيها للمرة الأولى. ارتبكت ومدت يدها إلى فنجان القهوة. رشفت منه ونظرت باتجاه البحر. كان ثمة زورق ينساب مقترباً من الرصيف بينما نورس يحط على سمكة ويخطفها، وأيد تلوح مبتهجة. كان هناك سماء صافية الزرقة، وفي المدى كانت ترى كروم الزيتون الخضراء أبدا، والجبال التي لا تحجب الأفق، ارتبك علي وكان قلبه يخفق عندما اكتشفت عائشة رنوه إلى عينيها. مد يده إلى فنجان القهوة. رشف رشفة ثم نظر باتجاه الشاطئ، هارباً من ارتباكه قال:

- انظري كم المشهد جميل... إنني لا أمله أبداً.
- إذن نحن متفقان على جمال هذا المشهد؟
- نعم وعلى ماذا سنتفق أيضاً.
- سنقوم الآن بجولة في الجزيرة.

كـان المذيـاع لا يـزال يتحـدث عــن زيــارة الســادات لإســرائيل، والأطفال ما يزالون يقفزون إلى الماء ويخرجون، بينما زوارق تصل وأخرى تغــادر، وصيــادون يرمـون شـباكهم وآخـرون يـهيئون لـوازم الصيد وعامل المقهى ينادي بالطلبــات ومويجـات لطيفـة تـذوب علــى الشط بينما السماء تخلق مع الماء تلك الزرقة الأبدية النقية التي تقول: كل شيء يجري في هذه الزرقة، وفي هذا الأفق المفتوح، والحيــاة مـا تزال صفحة زرقاء صافية كالبحر.

كان علي وعائشة قد وصلا إلى القلعة وسط الجزيـرة، وقفـا علــى السـطح، ومنـه نظـرا باتجـاه المرفـأ والسـماء وطرطـوس والزيتــون والجبال ثم باتجاه الغرب حيث تلتقي السماء بالماء فـي نهايـة المـدى. دارت نظراتهما، ثم التقت باتجاه الأفق الغربي، نظـرا إلــى بعضـهما، التقت عيونهما، معاً رفعا أيديهما، وتعانقا للمرة الأولـــى أمـام مـدى لا نهائي وتحت سماء صافية الزرقة.

١٩٧٧

أنشودة الشمس

بين مغيب شمس،
وشروق أخرى،
ـ أحياناً كالعواصف ـ
تمر الأيام.
الأيام تمر،
والأزهار والأشجار والطرقات تنمو
وهكذا...
هكذا الحياة تتغير،
بين مغيب شمس،
وشروق أخرى.

الراعي الصغير

١ـ المغيب:

ضعف ثم سكت صوت «الجرافة» الآتي من حقل قريب، وخلف سلسلة الجبال الغربية التي تحجب البحر، اختفت الشمس، وبدأ شعاعها الطالع من وراء الجبال يتلون من الأصفر الذهبي إلى الأحمر الشفاف ثم خمد لتبدو اللوحة رمادية تظلم على مهل وكأن المساء يتحول من غيمة شفافة إلى جبل أسود يبتلع في جوفه الأشجار والأصوات والألوان والنساء العائدات من الحقول وعن التنور ليجلبن

الدواب المنتظرة في فناء البيت، إلا مارية فإنها لم تجد بقرتها مربوطة إلى التوتة في باحة البيت، وحتى ولدها الذي أرسلته عصر هذا اليوم ـ بعد أن عاد من المدرسة ـ لم يكن موجوداً في البيت، لم تجد أحداً إلا الصمت والريح الخفيفة التي تلعب بروؤس شجرة الكينا الفارعة الفتية.

... وعلى الرغم من أن الأب تأخر إلى ما بعد غياب الشمس، وهو يشتغل مع «الجرافة» التي تفتح الطريق إلى القرية، فقد وصل قبل عودة ابنه ـ والبقرة ـ إلى البيت ـ ليجد زوجته مضطربة إلى درجة جعلتها تنسى إشعال الضوء في البيت، لكن الأب حافظ على هدوء أعصابه معللاً امرأته ونفسه بأن الولد تأخر لسبب ما، فربما... وربما... لكن المرأة أجابته «لكن البقرة يجب أن تحلب» وعندما طال تأخر الولد قلق الأب كذلك، وفكر ماذا يمكن أن يعمل، إلا أن رجلاً نادى من باب الدار «يا علي يوسف» ثم دخل، أعطى الجواب.

٢ـ الحاضر الماضي

عاد الأب مع ابنه ـ والبقرة ـ من البيت الذي كانوا فيه، وفي بيتهم بدأ الصبي يحكي لأبيه وأمه ـ على هدوء ـ ما حدث، قال:

كنت راجعا من الجبل، وفي الطريق رأيت «محمود العلي» طالعا من أرضه المزروعة بالحمص، وعندما رآني قال لي فورا «يا ابن الكلب لماذا رعيت بقرتك في الحمص، وأكلت منه؟» فحلفت له إنني لم أرع بقرتي في الحمص ولم أكل منه، لكنه شتمني وقال لي «ستخربون بيتي... ستخربون الضيعة... أنت ترعى في أرضي

وأبوك جعل الجرافة تمر فيها... يلعن أبوك... هات يدك» ثم أخذ يدي ولحسها وبعدها قال لي «أن يدك مالحة... لقد دخلت الحمص ورعيت فيه وأكلت منه» مع أنني وحق الله لم اقترب من الحمص، وبعدها ضربني على وجهي بيده، وساقني مع البقرة إلى بيته.

لم يقاطع الأب ابنه في حكايته، كان يستمع إلى الصبي، ويتذكر في الوقت نفسه ما كان يحدث له عندما كان في مثل عمر ابنه (حوالي الأحد عشر عاماً) كان الصبي يحكي والأب يوغل في زمن آخر، لكن بين هذه الجبال والأحجار والأشجار نفسها.

أنهى الصبي حكايته وصمت مرتبكاً، خائفاً. لم يطل الصمت، وتكلم الأب قائلاً: وأنا يا بني سأحكي لك حكاية حصلت لي عندما كنت في عمرك، استمعي يا امرأة:

ذات مساء... منذ ثلاثين عاماً تقريباً، وبينما كنت عائداً مع عنزاتي إلى البيت - لم أكن في المدرسة مثلك الآن - رأيت «علي يونس» والد «محمود العلي» وكان واقفاً عند أرضه المزروعة بالعدس، وهي الأرض التي كانت الجرافة تشتغل فيها هذا النهار.

وعندما رآني قال لي: «لماذا رعيت في العدس وأكلت منه؟» ومثلك حلفت له أنني لم أرع في العدس، ولم آكل منه، لكنه اقترب مني وقال «هات عصاك» وعندما أعطيته إياها سأل العصا «يا عصا ماذا عمل علي يوسف؟» ثم أجاب نفسه: «رعى في العدس وسرق منه» ثم توجه إلي وقال: «أسمعت؟ إنها عصاك وقد كانت معك، وهي تشهد عليك... إنها لا تكذب ولا تسرق، مثلك ومثل كل عائلتك كلكم لصوص» ثم قال: «يا عصا ماذا يستحق الذي يسرق

ويكذب ويرعى في أرض الناس؟» وأجاب نفسه: «يستحق فلقة» فقال لي: «أسمعت ماذا تستحق؟ نم على الأرض» ويومها كنا نخاف علي يونس جدا، فنمت، ورفعت ساقي، وبعد أن ضربني قال لي: «اذهب إلى أبيك وأرسله لي ليأخذ العنزات لي معه كلام». أعاد أبي العنزات بعد أن وعده أن يفلح له ثلاثة أيام.

ساد صمت عميق وحزين، عبره كان الماضي ينقاطع بالحاضر في حركة تخور أثناءها بقرة وينبح كلب، وتنمو شجرة، والصبي يكتب وظيفة المدرسة، ثم تململ صمت الأسرة الصغيرة وتحدثوا في موضوعات متفرقة، وبعدها تعشت الأسرة وقرأ الولد درسه متباهياً أمام أبيه بمعرفته القراءة.

٣ـ الشمس

في الفجر، ومن خلف سلسلة الجبال الشرقية، كان الأفق يبدو أزرق لازورديا بينما نجمة ما تزال تضيء، ثم تسللت الأشعة الذهبية، وظهرت قبل أن ترتفع الشمس من خلف قمم الجبال لتظهر في الشرق وقادة، مضيئة فتية أبدا، بينما وفي هذا الوقت كانت الأم تجلب بقرتها والابن في طريقه إلى المدرسة الابتدائية في القرية المجاورة، أما الأب فقد ذهب إلى العمل على الجرافة التي كان صوتها قد بدأ يهدر في الحقل القريب.

١٩٧٧

العودة إلى الحديقة

حدثها، قال:

... ووقتها كنت أفكر بماذا سيحدث لك، وكم سنبقى، ولماذا فعلو بنا ما فعلوا، فالركض واللعب وتبادل القبل في حديقة عامة لا يستحق السجن أو حتى تدخل الشرطة. كنت خائفا وآملاً بعض الشيء، إذ أن شخصية رئيس المخفر أوحت إلي ببعض الثقة، ثم أنهم تركوني في النظارة ولم يحولوني إلى السجن، كنت أفكر بأنهم ربما يكونون قد تركوك بعد أن هددوك بإحالتك إلى الكشف الطبي، أو ربما هددوك بإبلاغ والدك في المرة القادمة، ربما يكونون قد جعلوك توقعين على ورقة ما... وربما... وربما... وربما... وإذ بي من خلال نافذة غرفة النظارة التي كنت واقفاً إليها أرى سيارة الجيب التي أحضرونا بها من الحديقة تتحرك من أول المنحدر الذي يقع المخفر أعلاه، ثم تسرع، وصبي في حوالي السابعة يفتح بابها ويقفز ثم يركض صارخاً. مثل بعض الناس في الشارع وعلى الشرفات أخذت أصرخ، وقد نسيت وضعي ودوامة أفكاري، كنت أخاف أن تدهس سيارة الشرطة المتدحرجة أحد المارة، أو ربما تصطدم بسيارة أو عربة ما، ركض بعض الناس والشرطة خلف السيارة. إلى أن قفز أحد المارة داخل السيارة وأوقفها، ثم وصل الشرطي وأعاد السيارة إلى موقعها، ومن الناس عرف الشرطة أن صبيا لعب بالسيارة ودحرجها فذهب شرطي باتجاه زقاق مجاور علّه يجد الصبي وأخذ مع باقي رفاقه

يشتمون الصبي وأهله والتربية في هذه الأيام، ثم تغير الحديث وهدأ وتحول إلى سخرية ومزاح، بعدها تحولت السخرية إلى الشرطي الذي يحث عن الصبي ولم يستطع القبض عليه، ثم تندروا بشيء من الإعجاب على الصبي الذي تجرأ ولعب بسيارة الشرطة، وعلى الرغم من صعوبة موقفي، وجدت نفسي أضحك مع الشرطة الواقفين على الرصيف لا يفصلني عنهم إلا قضبان نافذة النظارة، كنت أضحك من الصبي، ولأني تذكرت وقتها القصة التي سأحكيها لك:

كانت الثكنة العسكرية تقع في طرف طرطوس، لكن مع الأيام كبرت المدينة، واقترب البناء من الثكنة، حتى أن الثكنة العسكرية صارت وسط المدينة تقريباً. في طفولتي كنا نلعب قرب الثكنة وفي الساحة التي أمامها وفي الطريق الموصل إلى بابها، حيث هناك دائماً حارس متنكب بندقيته يروح ويجيء بخطوات نظامية أمام الباب. كنا نقترب أحياناً من الحارس فيصرخ بنا لنبتعد، وأحياناً أخرى يتركنا الحارس نلعب حتى قرب محرسه الخشبي. كان بعض الحراس يرسلنا لنشتري له علبة سجائر أو سندويشة بينما كان آخرون لا يسمحون لنا حتى بالاقتراب من المحرس الخشبي، ومع الأيام صرنا نعرف الحارس اللطيف معنا من الحارس الذي سيطردنا حتماً إذا اقتربنا، بل أصبحنا نقلد الحراس في مشيتهم النظامية أمام باب الثكنة، وبدل البندقية كنا نتنكب عصياً أو قضباناً، ونروح ونجيء أمام بعضنا نعدُّ ـ واحد اثنين واحد اثنين ـ أذكر أن أحد الحراس كان يشاركنا اللعب، كان يصفنا وراء بعضنا ويعدُّ لنا ـ واحد اثنين واحد اثنين ـ وعندما يتضايق منا أو يقترب رئيس الحرس يشتمنا ويطردنا لنعود عند تغير الحارس أو في اليوم التالي حاملين عصينا وقضبنا،

إلى أن أتى يوسف ـ وقد أصبح الآن معلماً ابتدائياً ـ ذات يوم ينوء تحت حمل بندقية حقيقية.

كان الفصل صيفاً، وكانت الحرارة مرتفعة. وما من إنسان كبير في الساحة أمام الثكنة. لكننا ـ نحن الأولاد ـ كنا نلعب بعيدين عن الحارس حوالي مائتي متر. وإذ بيوسف يصل حاملاً يتثاقل بندقية حقيقية ويقول: تفرجوا... تفرجوا كيف أمشي، لكننا لم نتفرج، فلقد أفسد علينا الفرحة امرأة مرت في الساحة وهي في طريقها إلى بيتها فرأتنا، وبالطبع عرفت فوراً مصدر البندقية، فيوسف لم يستطع الكذب واعترف أنها أخذها من محرس العسكري.

قادت المرأة يوسف من أذنه إلى باب الثكنة العسكرية، وعن بعد تبعناهما، وعلى الباب، أمام المحرس رأينا العسكري يدور باحثاً عن بندقيته. وبالطبع أكل يوسف نصيبه من الصفعات والتهديدات، ومعه شتمنا الحارس، وهددنا بالضرب إذا عدنا للعب قرب الثكنة العسكرية، وبعد أن تركوا يوسف حكى لنا القصة: بينما كان آتياً إلينا رأى البندقية وحيدة في المحرس ـ ربما كان الحارس يشرب أو يقضي حاجة ما ـ وهكذا أتى بها، بالطبع بقينا مدة لا نجرؤ على الاقتراب من الثكنة، لكننا عدنا بعدها إلى اللعب حواليها...

هذا ما كنت أفكر به وأذكره وأنا في غرفة النظارة، فبماذا كنت أنت تفكرين، أتمنى أن تحكي لي، هل كنت خائفة؟ هل أهانوك... هل... هل... لكن انظري ها هو حارس الحديقة ينظر إلينا، لقد عرفنا، فهل يستدعي الشرطة علينا مرة ثانية، إذا ركضت وراءك الآن وقبلتك؟؟

١٩٧٧

وردة تحت الرماد

«تلك غربة العمر، غربة الجمر في الرماد
النهار في الليالي - الأولاد في الشوارع -
لكنها بلادي، في قلبي...
وعلى ظهري...»
راوي القصة

١٩٤٨

مرة واحدة يأتي الإنسان هذي الحياة. كان البيت غرفة واحدة، وكان الأب فلاحاً هرب من القرية وتطوع في الجيش الفرنسي، ثم التحق بالجيش الوطني وحارب في فلسطين. الأم كانت فلاحة أنجبت طفلها الأول هذا العام في فصل الصيف، لكن الطفل الوليد لا يذكر شيئاً عن هذا الوقت، ولم يكن يعرف الفصول، فمن أين يا ترى تبدأ الفصول، من أين يا ترى يبدأ العمر؟!

١٩٥٠

عام مضى على أول انقلاب عسكري في البلاد، والطفل صار ابن عامين، والأم تعيش من غسيل ثياب الناس، ومن راتب الزوج الذي مات في العام السابق، لكن الطفل لا يذكر شيئاً عن هذه الأيام، لا يذكر الخبز الذي تحضره أمه من بيت يوسف أفندي ولا البنطال

المرقع من بيت الأستاذ سليم، ولا الدموع التي ترسلها الأم في ليالي الشتاء الباردة، فمن أين يا ترى يبدأ الفقر؟!

١٩٥٣

بدأ يعي أن الحياة حلوة ومرة، كالبحر هادئة أحياناً، وكالبحر هائجة أحياناً أخرى، كالطقس تصحو وكالطقس تمطر، لكن الأم في كل الأحوال تشتغل، والطفل كصنوبرة ينمو، بينما البحر القريب يبدل ألوانه على مدار السنة، فمن أين يا ترى يبدأ البحر؟!

١٩٥٥

... وعلى الرغم من الفقر كانت هناك المدرسة والأقلام الملونة وقبلات الأم وأحرف الكتابة الأولى هذا العام. من ذلك الزمن يتذكر الآن، وكالضباب في الذاكرة، مشهد الأم تسلمه للمدرسة أول يوم، ومشهد خروج المدرسة لملاقاة زعيم سياسي كبير زار البلدة في ذلك الزمن. يذكر الآن أيضاً ـ وجه المعلمة حاملة العصا، والكتاب الأول والمقاعد واللعب مع الأولاد والهرب من المدرسة إلى شاطئ البحر، فمن أين يا ترى يبدأ العلم؟!

١٩٥٨

كان هناك احتفالات وحشود ضخمة وخطابات وأعلام وأقواس ملونة وذهاب الخال إلى السجن. في هذا العالم كان قد بدأ يحسن القراءة، وكان قد تعلم ألعاباً جديدة وزار أرواد وقلعت الحصن وبحيرة قطينة وغابات الفرلق في رحلات مدرسية، لكن ذلك كله يغوص ـ الآن ـ في قاع الذاكرة، فمن أين يا ترى تبدأ الذاكرة؟!

١٩٦١

تحدثوا عن انقلاب وعن بيان تاسع، فاستمع إلى المذياع ورأى في الليل طائرات تمر فوق المدينة، وفي الصباح سمع أنها أنزلت جنودا في مطار حميميم. المدرسة أغلقت ثم عادة وافتتحت، وفي هذا العام لبس أول بنطال طويل، وتعلم ركوب الدراجة، وبدأ يتعرف إلى وجوه البنات اللواتي يجمعه بهن طريق المدرسة الإعدادية كل يوم، في هذه الطريق كانت ندى تسير كل يوم، فمن أين يا ترى يبدأ الحب؟!

١٩٦٥

في هذا العام يكتب أولى رسائل الحب، ويتلقى أول خيبات الحب الفاشل، في هذا العام يتعرف إلى الكتب والأحلام والتفكير بالمستقبل والوطن وحالة الأم الفقيرة، فمن أين يا ترى تبدأ الثورة؟!

١٩٦٧

ترك الله نهائيا، وتحمس لإغلاق خليج العقبة وقوة عبد الناصر والحرب. ما كان مقتنعا بشيء لكنه كان واثقاً من سهولة النصر على إسرائيل، وعندما سمع الرئيس يستقيل في المذياع بكى فيمن بكى، ومن يومها بدأ يتكلم بالسياسة كثيرا، فمن أين يا ترى تبدأ السياسة؟!

١٩٧٠

الفقر ما يزال مستمرا، والأم توفيت العام الماضي، والقلب مملوء حزنا وخواء، ترك اللاذقية منذ عامين وصار معلماً ابتدائياً في الريف. في أيلول من هذا العام حدث ما حدث. كان يسمع كل شيء

في المذياع ويتحرق ويشتم، في هذا العام خطب فتاة وتركته بعد أن أعطبت قلبه، فمن أين يا ترى يبدأ العطب؟!

١٩٧٣

يؤدي الخدمة العسكرية والحرب تقوم وتقعد تاركة إياه ورقة بيضاء في زوبعة. قرأ قليلاً وتكلم في السياسة كثيرا، وتعرف إلى الخمرة والبغايا والسجائر والأصدقاء الجدد. تعرف إلى المقهى حيث يجلس الآن ويتذكر وصار جليسا دائما. فمن أين يا ترى يبدأ المقهى؟!

١٩٧٥

مرة يبدأ العمر، وقبل أن ينتهي يضبط المرء نفسه وكأنها في الجرم المشهود، يتسرب الزمن خفيفا من حياته كالريح بين ابر الصنوبر، كالريح الخفيفة فوق الماء، الرغبة في العالم بدأت تموت، فها هو قد ترك الجيش، وبدأ رحلة شاقة في البحث عن غرفة بعد أن عاد إلى اللاذقية معلما، يحس أنه نسي كل شيء في مكان لم يزره، فمن أين يا ترى يبدأ النسيان؟!

١٩٧٧

الحياة صارت محددة تماما. من البيت إلى المدرسة فالمقهى، أو من المدرسة إلى المقهى فالبيت، أو من المقهى إلى البيت فالمدرسة.

في هذا العام ترك نهائياً التفكير في أيما شيء، العالم يتحرك حوله وهو في المقهى يحس أنه لم يخسر شيئا لأنه لم يملك في حياته أي شيء. كانت الأيام والليالي تمر. الأطفال يولدون والرجال يموتون والطائرات تتحطم والأشجار تنمو والسفن تتصادم والبحر يصطخب

ويبتلع الرجال، مكان المقهى بقي مكاناً صامتاً عازلاً، فكيف يا ترى يمر العمر هكذا؟

١٩٧٨

ها هو الآن جالس في المقهى يتذكر ووقت الخيارات الحاسمة مضى، فلا شيء بعد الثلاثين، مثلما لم يكن شيء قبلها. أصبح الآن يعرف درب المقهى تماماً، وآخر الليل يعرف طريق البيت جيداً حتى ولو كان ثملاً. هكذا يمضي العمر فارغا كقصبة جافة، حزيناً كامرأة وحيدة. البحر جثة، والمستقبل، كالماضي، نهر من النسيان يفصل عن كل ما يتحرك في الضفة الأخرى، فكيف يا ترى ينتهي العمر باكراً... هكذا؟

* * *

تعليق من الكاتب، الراوي على هذه القصة... هذه الحياة:

... وكما ترون، إنها حياتنا، أحياناً نقول: لن نتركها تمر «هكذا» بينما نحن ماضون فيها هكذا. ما العمل إذن؟ وكيف، يا ترى، لا نترك العمر يمضي... هكذا؟!

١٩٧٨

محاكمـــة

بطاقة شخصية

العمر: خمسة وأربعون عاما

المؤهلات: إجازة عامة في الحقوق

الوضعية العائلية: متزوج وله أربعة أولاد

العمل: موظف في وزارة التربية

١ـ ملخص حياة عامة:

ولدت عام ١٩٣٤ في قرية القيسية محافظة طرطوس وتعلمت في مدرسة ابتدائيـة تقـع قـرب القيسـية، بعـد شــهادة الدراســة الابتدائيـة حصلت على منحة دراسية لأني كنت طالباً متفوقاً. لـولا هـذه المنحـة ما كنت اسـتطعت متابعـة الدراسـة، ربمـا كنـت بقيـت فـي القريـة، أو نزلت واشتغلت في طرطوس. بعـد شـهادة الدراسـة الإعداديـة دخلـت دار المعلميـن فـي حمـص وصـرت معلمـاً. ثـم حصلـت علـى شــهادة الدراسة الثانوية وأنا معلم، وانتسبت، وأنا في الجيش وقد خدمت على الجبهة، إلى كلية الحقوق في جامعة دمشق لأنها لا تحتـاج دوامـاً. لـو كانت أحوالي جيدة كنت انتسبت إلى كلية الطب.

٢- ملخص حياة خاصة:

عشقت ابنة عمي في القرية وتزوجتها عندما كنت معلماً جديدا في رأس العين، لكني بعد أن حصلت على الحقوق أحسست بأنني ما عدت أستطيع التفاهم معها. صرت أشعر بوجود فروق كثيرة بيننا، بل وبكره لها، فهي لا تعرف القراءة، وليست جميلة، وأنا صارت لي علاقات كثيرة مع معلمات وموظفات خاصة بعد أن انتقل عملي إلى دمشق عام ١٩٦٥. أشعر بالخجل عندما تسألني بعض زميلاتي في العمل: هل زوجتك متعلمة؟!. يجب أن تكون زوجة المثقف متعلمة.

٣- أمور اجتماعية، عادات، أفكار:

لم يكن في قريتي تنظيمات سياسية. في دار المعلمين تعرفت على السياسة. كنت معلماً جديداً في الجزيرة عندما طار الشيشكلي وفي عام ١٩٥٧ تطوعت في المقاومة الشعبية وتحمست للوحدة عام ١٩٥٨ وزرت مصر في رحلة معلمين. بعدها شغلت بهموم الأولاد والأسرة. لم أنتسب إلى أي حزب سياسي. في الحقيقة أنا أكره الأحزاب فهي تبث الفرقة بين المواطنين. أنا لا أدخن. أنا لا أشرب الخمر كثيرا. في الحقيقة أنا لا أحترم رواد المقاهي. من الأشرف للرجل أن يبقى في بيته. أحب التفرج على التلفزيون وخاصة مباريات المصارعة. لا أقرأ الصحف لأنها كذابة. أنا أتمنى أن يكون لدي سيارة. أنا أتساءل كثيرا: كلهم يصلون فلم لا أصل مثلهم؟!. لِمَ لا أعيش حياة جيدة مثل حياتهم، هل هم أفضل مني؟!

٤- قضايا العمل والأجور:

يصل راتبي حوالي ثمانمئة ليرة سورية. لكن ماذا يفعل هذا المبلغ لأسرة في دمشق. نحن سبعة أشخاص، أنا وأربعة أولاد وأمي وزوجتي أتمنى لو كان هناك عمل إضافي. أنا مستعد للعمل الإضافي. لكني لم أجد عملاً إضافيا. زملائي في العمل لديهم محلات تجارية. ربما لهذا قبلت التعاون مع الأمن عندما عرض علي ذلك: أنا آخذ مبلغاً شهرياً لقاء بعض المعلومات. لا أعتقد أن في الأمر أي خطأ. فأنا لا أكذب على أحد. أقسم بشرفي أنني لم أؤذِ أحداً. ما من مرة كتبت كذباً بحق أي شخص. أعطوني أربعماية ليرة سورية ومسدسا. أناس أقل مني يأخذون أكثر من راتبي ويعيشون حياة جيدة. لماذا لا أعيش حياة معقولة مثل غيري. أنا ليس لدي محل تجاري أو سيارة أجرة مثل غيري.

٥- الزواج الثاني:

سعاد تشتغل معي في الدائرة. فتاة جميلة توظفت العام الماضي، في البداية لم ألاحقها، ثم شيئاً فشيئاً بدأت ألاحظ جمالها ولطفها. إنها أجمل من زوجتي بالتأكيد، ثم هي متعلمة وبإمكاني التفاهم معها. كما تعرفون، من الصعب على حقوقي مثلي العيش والتفاهم مع امرأة جاهلة. أحببت سعاد واتفقنا على الزواج وعلى أن نعيش في بيت مستقل عن أسرتي، هي تملك بيتاً.

٦- الجريمة:

كنت في البيت الذي سأسكن فيه مع سعاد، أتت حليمة زوجتي، ولا أعرف كيف تعرفت إلى البيت، وبدأت تسب وتشتم. بصقت في

وجهي. قالت لي أنت حقير، كلب، ضربتني بالحذاء، كانت ساعتي ومسدسي على الطاولة. ضربتها بالساعة، ولا أعرف كيف تناولت بعد ذلك المسدس وأطلقت النار عليها. لا أعرف كيف تصرفت، إنني نادم. ما كنت أظن في يوم من الأيام أنني سأرتكب جريمة. الآن أشعر أنها امرأة طيبة قاسمتني الأيام السوداء، لكنها لم تستطع فهمي، كانت جاهلة لم تستطع أن تفهم أن دمشق غير القيسية. أتمنى أن تفهموني.

*

حكمت المحكمة بمايلي: «الإعدام مع وقف التنفيذ»

*

تعليق راوي القصة:

ليس من الضروري أن يقتل كل واحد من أمثال عبد الهادي محمود زوجته لنعرف ما يحدث هذه الأيام، لكن من المؤكد أن أمثال عبد الهادي محمود يطلقون النار يومياً على زوجاتهم، أطفالهم، آبائهم، أمهاتهم، قراهم، أحيائهم الفقيرة، طبقتهم، أشجارهم، إنهم يطلقون النار على كل ما يذكرهم بماضيهم الفقير... هل يكفي أن نقول لهم، إنكم بإطلاقكم النار هكذا على ماضيكم الفقير، تطلقون النار على مستقبل بلادكم كذلك؟ ماذا نفعل معهم؟

والآن نسألكم أنتم، يا من لستم من أمثال عبد الهادي محمود، أنتم يا من يطلق النار عليكم عبد الهادي محمود، أنتم، نسألكم: على من ستطلقون ناركم؟

١٩٧٨

القمـــر

«ثمة شمس لا تغيب في كل ما أكتب»

ألبير كامو

ثلاثة قهوة يا عبيدو...

طلب ثم تابع حديثه مع الشابين:

... فالسنوات كالأزهار تنمو وتموت وتنمو. عن ماذا أحدثكما بعد؟ عن الحب أم عن البشر أم عن السفن والحياة؟... أتذكر الآن الاسكندرية مرة رست سفينتنا في مرفنها. كان هناك سفن وبحارة وحانات يونانية وشوارع طويلة توصل إلى أزقة ضيقة فقيرة مزدحمة بالناس والعربات والدكاكين الصغيرة، من أحد هذه الدكاكين سمعت صوت سيد درويش يغني:

«يجعل صباحك صباح الخير يا سي عطية» ووقتها أحسست أنني أرى ذلك القمر الأليف في حياتي.

إلى حيث تذهب السفينة كنت أذهب وكانت هي معي كالسفينة. رأيتها وكنت في السادسة عشرة، في عمرك الآن يا مهى، أحببتها، وها أنا ذا قد تجاوزت الستين يا ابنة أخي. ما عدت أذكر إلا حبها. مرة رست سفينتنا في ميناء البصرة، ومنها ذهبت إلى بغداد وتفرجت على أحيائها وعلى شارع أبي نواس فيها. ومن بغداد ذهبت إلى

سامراء وصعدت إلى أعلى مئذنة الملوية الجميلة. من أعلى المئذنة رأيت قمراً؟ إنه القمر المعلق في حياتي.

تعلمت سبع سنوات في باريس. تجولت كثيراً في أحيائها وشوارعها. عشت في حدائقها العامة الكبيرة وغرفها الصغيرة، هناك تعلمت الحرية في الرأي والحب والحياة. سبعاً من السنوات، وفي سماء باريس كنت أرى دائماً ذلكم القمر المنير في حياتي.

قابلتها في أوتوبيس السيدة زينب في القاهرة. كانت سمراء وقصيرة قلت لها أنني سوري رحبت بي وأجابت كلنا عرب. دعتني إلى بيتها في حلوان وعرفتني على زوجها. كان عاملاً ونقابياً في مصنع للنسيج، ذهبا بي في جولة مع بعض الرفاق وتفرجنا على المدينة وعلى معامل حلوان. كانوا يتحدثون في الحياة والسياسة ويشيرون إلى المداخن التي تأكل حياتهم، وكنت أرفع رأسي إلى السماء فأرى مداخن المعامل وهذا القمر المرتفع في سماء حياتي.

كان صغير القامة وناحلاً يملك روحاً كالبحر، علمني قراءة الكتب غير الطبية وعلمني عشق الحياة كان يقول لي دائماً:

«الحياة عظيمة، رحبة، ثق بالبشر، المستقبل للإنسان على الرغم من كل المرارات وكل الظلم والاضطهاد الذي تراه. لن نأتي هذه الحياة إلا مرة واحدة، لنعبرها بشرف، بإنسانية».

مات في أحد السجون تحت التعذيب منذ عشرين عاماً، ما تزال صورته في قلبي وذاكرتي. ما تزال معي صورة أعطانيها أخوه بعد أن قتل، ما زلت أذكره، فمن يا ترى غيره علق هذا القمر في حياتي؟!

تعرفت إليه في مرسيليا بعد أن اشتغلت في السفينة للمرة الأولى، كان سائق رافعة. دعاني إلى حانة قرب المرفأ. كنا شباباً. شربنا كثيراً تبادلنا القبلات والصور والأغاني والعناوين. بكى عندما تذكر حبيبته التي قتلت في المقاومة أثناء الحرب. تجولنا في الشوارع حتّى الفجر، وفي فجر ذلك اليوم رأيت أيضاً هذا القمر الساكن في حياتي.

رأيتها في مرفأ أوديسا. كانت تقود جراراً لنقل البضائع من السفينة إلى المستودع. كانت تلبس بدلة زرقاء وتضع قبعة وتبدو كتلميذة مشاكسة. كانت تبدو مثلك الآن يا ابنة أخي. لم أكلمها، بل وقفت على حاجز السفينة أراقبها، ففي وجهها كنت أرى ذلك القمر المضيء في حياتي.

قابلتها في مرفأ فماغوستا. كم أتمنى أن تتعرف على مثلها يا أحمد. بقيت معها أسبوعاً كاملاً. أحببتها عرفتني على أهلها. دارت بي في قبرص كلها وسقتني شراب اللوز كثيراً. كانت تقول لي: اشرب... اشرب إنه يقوي الأعصاب والذهن. كشفت لي بساطة الناس وطيبتهم وإخلاصهم. أتمنى الآن لو تزوجتها. بقينا عامين نتبادل الرسائل والبطاقات ونتكلم عن قمر معلق في الفضاء.

فلنشرب القهوة مرة أخرى يا ابن أخي

- ثلاثة قوة يا عبيدو...

لدي قصص كثيرة عن ناس وأمكنة وأزمان. إنها الحياة بمرها وحلوها. أتذكر الآن ذلك الحمال الزنجي في مرفأ بلتيمور قرب نيويورك. أصر على دعوتي إلى بيته في نيويورك. كان يسكن في هارلم. خفت أن يسرقني وعندما عرف أنني طبيب السفينة - في اليوم الثاني - قال لي طفلي مريض. ذهبت معه وعاينت طفله. أعطيته

أدوية من السفينة. في المساء أقام لي سهرة دعا إليها رفاقه في الحي، بعضهم أتى ومعه أطفاله لأعاينهم. شربنا كثيرا ليلتها. عزفوا موسيقاهم وغنوا وأصروا علي أن أغني لهم أغنية عربية فغنيت كنت أنظر في وجوههم وأكواخهم وأطفالهم فأرى ذلك القمر المعلق في فضائي.

يا ابني أخي: السنوات كالأزهار كالإنسان وكالشجر، تولد وتذبل لكنها تنمو، وها أنذا على الشاطئ أبحث عن سفينة أحرقها ورائي فاكتشفت أنني وصلت هذا الشاطئ وهذي الحياة عريان لا أملك إلا قمري، قمري المضيء في حياتي.

يا ابني أخي أنتما شابان، وها أنذا قد جاوزت الستين أحكي لكما عما شاهدت وعما عرفت، أحكي لكما عن سائقة الجرار في أوديسا وذاك الحمال الزنجي وذاك العامل في حلوان، أحكي عمن مات تحت التعذيب، ها أنذا أحكي لكما عن هذا القمر الساكن في قلبي كالخفقان، لقد جاوزت الستين وها أنذا أترك البحر والسفن والمدن والحانات وربما الناس، ودون أن أنظر ورائي، إنني أركن إلى هذا المقهى البحري أراقب النوارس والناس والشمس التي تغرب كل مساء وتعود كل صباح. ها أنذا أشرب القهوة كل مساء وأتفرج على الناس السائرين أمامي على هذا الرصيف البحري وأتساءل «ألا يرون معي هذا القمر المعلق في الفضاء».

فلنشرب القهوة يا ابني أخي، انظرا ها هي الشمس بدأت تسيل فوق البحر، انظرا ما أجمل الشمس، فالشمس هي أيضا قمر معلق في هذي الحياة.

أعماق البحر الأبيض المتوسط

١ـ مشهد رقم /١/ عام

أشرقت الشمس، امتزجت أشعتها بنسمات عليلة حركت ذوابات الأشجار وسطح البحر الساكن. تحرك الناس إلى أعمالهم، ومع اشتداد الحرارة اشتدت حركة الناس. في الظهيرة هبت عاصفة وهطلت الأمطار فماج البحر واعتكر وترك الناس شرفات مقاهي الشاطئ ودخلوا القاعات. مساء كان الهدوء قد عاد، وكانت الطاولات قد عادت إلى الشرفات والأرصفة وبدأ الناس يسيرون على الرصيف البحري أو يرتشفون القهوة في مقاهيهم ويرنون إلى المدى البحري، حيث الشمس التي أرسلت أشعة التحية في الصباح ترسل أشعة الوداع والأمل باللقاء.

٢ـ مشهد رقم /٢/ تفصيلي

كانوا في مقهى الرصيف البحري. واحد واثنان وثلاثة أو أربعة على الطاولات. كانت يشربون الشاي أو القهوة ويتبادلون الأحاديث أو يحدقون في المدى البحري والمرفأ، يشكون قلة السفن. كان المساء هادئا، أليفا، والبحر يتلوى مع الغروب. كان حسين يقرأ جريدة «البعث» ومحمد يتحدث عن إخفاقه في إيجاد عمل، ومروان يتحدث عن الحب والملل في اطرطوس، وأحمد يروي قصة خلافه

مع صاحب الدكان الذي يشتغل فيه و... و... وفجأة، وعلى الطاولة المجاورة قام شاب وبدأ يصرخ:

«يا ناس... يا عالم.. أنا شاب... أنا شاب... لماذا لا أجد عملاً... أنا على استعداد لأن أعمل أي شيء... إنني جائع.. أنا سأشحذ... أعطوني رغيفاً. أليس هناك إله.. رب؟! إذا كان هناك إله فلماذا أجوع؟ منذ أسبوع وهم يطردونني... أنا على استعداد لأن أعمل أي عمل... منذ أسبوع وهم يطردونني من باب المرفأ، يا ناس ليس معي ثمن سندويشة فلافل... يلعن كل البشر... كل الناس... يلعن... أنا لا أستطيع الحياة بعد الآن... سأنتحر... سأقتل نفسي... سأ...».

ما من أحد رد على الشاب. كانوا يراقبونه صامتين، وربما مدركين أنه شتم كل الناس ليجد من يشتبك معه، ولكن الشاب أخرج من جيبه موساً وشهره:

«سأنتحر أمامكم... الآن أمامكم... سأضرب نفسي بالسكين» ما من أحد تحرك، ويبدو أنه ما من أحد اقتنع أن الشاب يجرؤ على أن يفعلها، لكنها فعلها، وانهال ضرباً، بالسكين، على شريان يده، عند المعصم.

٣- مشهد رقم /٣/ عام

في الصباح كانت أشعة الشمس تشرق من الأفق الشرقي، والناس قد بدأوا المسير إلى أعمالهم، بينما البحر الصافي، هادئ كوجه فتاة طيبة. كان حسين يشرب القهوة ومحمد على موعد مع متعهد ليجد له

عملا، ومروان يراقب النوارس ويوسف يتساءل فيما إذا كان هذا النهار سيشهد عاصفة فجائية يتلوها هدوء كالأمس، أما الشاب الذي حاول الانتحار مساء البارحة، فقد كان ساكنا سكون الصباح والبحر، معصوب اليد يشرب القهوة ويراقب البحر الساجي، كصباح الأمس تماما.

١٩٧٨

الفهرس

صفحة

مطلع ٥

المدن الساحلية ٧

حارة الرمل ٦٥

قصة حب بحرية ٧١

سماء البحر الزرقاء ٧٥

أنشودة الشمس ٨١

العودة إلى الحديقة ٨٥

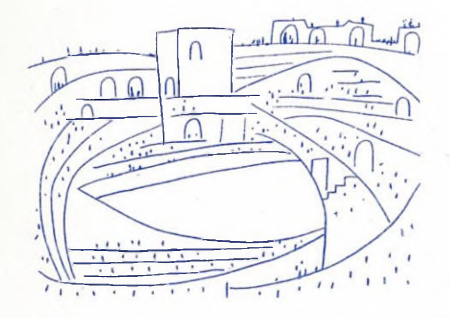
وردة تحت الرماد ٨٩

محاكمة ٩٥

القمر ٩٩

أعماق البحر الأبيض المتوسط ١٠٣

المُدُن السّاحِليّة



٠٠٢١

مطبعة اليازجي